البَـابُ الأولـ

في العقائد والعبادات

الإيمان بالله ـ أدلته وأثره

الحمد لله الذى أقام أدلة وجوده فى آيات الكون ، ولفت النظر إليها فى كتابه الكريم .

أحمده سبحانه خلق الإنسان من نطفة من ماءٍ مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، بيده ملكوت كل شىء ، وأشهد أن محمدًا رسول الله ، المبعوث رحمة للعالمين ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه خيرة أولى الألباب الذين وصفهم الله بقوله : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِى لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا . . . ﴾[1] .

أما بعد ؛ فياعباد الله إن هذا الوجود كله بما فيه من حيوان ونبات وجماد ، وبما فيه من صنع عظيم ، وانتظام بديع ، وتنسيق رفيع ، لأكبر آية على وجود مبدع لا شريك له ، لأن الشركة تقتضى التعارض والتدافع ، مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2] ، وقوله جل ثناؤه : ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[3] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩١/١٩٣ .
(٢) سورة الأنبياء : ٢٢ .
(٣) سورة المؤمنون : ٩١ .

إن هذا الوجود بنظامه الدقيق ، وما فيه من سنن لا تتخلف ، وتماسك لا يقبل التفكك آية على ذلك الإلٰهِ العظيم ، مالك الملك ومدبره ، فهذا الوجود لا بد له من موجد عظيم ، وهذا الخلق العجيب لا بد له من خالق قدير عليم ، كما يقول عز ثناؤه : (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ . الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)[1] .

إن هذا خلقٌ من تأملَه ، ونظام من تفكر فى أمره ، آمن بأن له خالقاً ، وجزم اعتقاده بأن له ربًّا مدبرًا ، فمحال أن يكون ذلك الكون نشأ هكذا وحده دون قوة تنشئه ، كما أن محالا أن تكون صنعة لا صانع لها ، فالفراش الذى تجلس عليه ، والمنبر الذى أقف عليه ، والمسجد الذى نصلى فيه — محال أن يوجد شيء من هذا من غير صانع صنعه ، أو شيده وأقام بناءه ، وإن لم تر الصانع حين صنع . وهذا الثوب الذى تلبسه لا يمكن أن يكون صنع نفسه ، بل لا بد له من صانع انتهى منه إلى هذا الوضع الذى تلبسه ، رأيته أم لم تره . وهذه السيارات والطائرات والصواريخ والأقمار الصناعية كلها نتيجة صنع وإحداث .

وهكذا يشعر كل إنسان شعورًا ضروريًّا بأن كل أثر لا بد له من مؤثر ، وكل موجود لا بد له من موجد ، ولهذا سئل الأعرابى ، فقيل له : كيف عرفت ربك ؟ فقال : الأثر يدل على المسير ، والبعرة تدل على البعير ،

---

(١) سورة الملك : ١ — ٤ .

فسماءٌ ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا تدل على اللطيف الخبير ؟

وقد نبه الله إلى ذلك فى كثير من آيات الكتاب الكريم ، فقد أيقظ الفكر ونبه العقل إلى أنه لا بد لهذا الكون من خالق ، ولا يتصور العقل غير ذلك . فهو سبحانه يقول – فى الرد على الزائغين الملحدين : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ)(١) .

ويقول فى التوجيه إلى خلقه البديع الدال على وجوده ووحدانيته :

(. . إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ)(٢) ، ويقول جل شأنه : (. . . ءَآللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)(٣) .

فجدير بمن تفكر فى هذا العالم ونظامه ، فى سمائه وأرضه ، وما فى السماء من نجوم وكواكب ، وشمس تجرى لمستقرٍّ لها ذلك تقدير العزيز العليم ، وقمر قدره الله منازل حتى عاد كالعرجون(٤) القديم ، وما ذلل الله سبحانه به الأرض للمشى فى مناكبها ، والاستقرار عليها كما يقول جل شأنه : (. . . هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)(٥) ، وما أمسكها به من الجبال ، وما نوع به الماء من عذب فرات وملح أجاج ، وما يسير به كل شىء فى نظامه ، وما يتحرك أو يسكن

---

(١) سورة الطور : ٣٥ و ٣٦ .
(٢) سورة يونس : ٦ .
(٣) سورة النمل : ٥٩ / ٦١ .
(٤) العرجون القديم : أى سباطة البلح الجافة .
(٥) سورة الملك : ١٥ .

فى ميعاده ، فى ترتيب زمنى لا يتقدم فيه ولا يتأخر ، ولو اضطرب شيء من ذلك النظام ، أو اختلف الميعاد ، أو اختل الترابط المشاهد الملموس بين الكائنات ، لتداخل بعض العالم فى بعض ، ولسقطت السماء على الأرض ، ولفسد نظام الكون ، ولكنه من صنع الله خالق كل شيء فتبارك الله أحسن الخالقين – جدير بمن رأى كل ذلك ، وتفكر فيه أن يؤمن بخالقه ، القوى المتين ، سبحان الله رب العالمين .

أيها المسلمون؛ إن كل عقل سليم إذا فكر اهتدى ، لا محالة ، إلى معرفة خالقه ، فآمن به ، واتجه إلى عبادته ، تقديرًا لربوبيته ، وشكرًا له على نعمته ؛ إذ آتى الإنسان كل ما يحتاج إليه فى معاشه ، كما هداه النجدين – طريقى الخير والشر – على يد من أرسل من الرسل لهدايته وسعادته فى الدارين ، وبذلك تتحقق خلافته لله فى الأرض ، ويعمرها بالإصلاح والخير : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)(١) .

وإن الإيمان بالله سبحانه لهو تلك الثروة الروحية العظيمة ، التى تجعل الإنسان يمشى على الأرض بالحكمة ، ويهتدى إلى السلوك السليم ، فلا يظلم أخاه الإنسان ، ولا يرتكب معه أى إثم أو عدوان ، فإن من آمن بأن الله حق ، وآمن بشريعته ورسله ، وآمن أنه مبعوث ليوم عظيم يحاسب فيه على عمله ، إن من آمن بكل ذلك لا يكون إلا فردًا صالحاً فى مجتمعه ، نافعاً لنفسه وللناس ، محافظاً على حقوق إخوانه فى الدين وفى الإنسانية ؛ لأن الله حدَّ حدودًا وحذر من تعديها ، وهو رقيب على عباده فلا يخفى عليه شيء من أمرهم . ومن خلا قلبه من الإيمان كان قاسياً حائرًا أنانيًا معتدياً . وصدق الله سبحانه إذ يقول: (.. وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)(٢).

---

(١) سورة إبراهيم : ٣٤ .   (٢) سورة التغابن : ١١ .

وإن الإيمان بالله سبحانه هو الذى يوسع آفاق الحياة فى نظر المؤمن ، ويجعله هادئاً راضياً صابرًا فى البأساء والضرَّاء ، مسلماً لله فى كل ما يجرى به القضاء ، وهو فى نعمائه شاكر لله ، محسن إلى عباده ، غير متكبر ولا جبار ، يؤدِّى لإخوانه فى الإنسانية حقوقهم من العون والتواصى بالخير ، ويجعل سعيه فى سبيل الخير والفلاح .

وهو بإيمانه وعمله الصالح سعيد فى دنياه بسلامة صدره ، وطيب نفسه ، وتجدد أمله ، وانتظاره لرحمة ربه — وسعيد فى آخرته بإيمانه وصالح عمله كما يقول الله سبحانه : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُون)[١] .

وأما أولئك الزائغون الملحدون فإن نفوسهم دائماً قلقة ، لأنه لا يوجد عندهم رصيد من الإيمان يربط بين قلوبهم وبين الرحمة ، وكثيرًا ما يدرك الواحد منهم يأسه فى الحياة ، وكثيرًا ما يقطع عليهم هذا اليأس كل باب من أبواب الرضا بالكائن ، وانتظار الفرج عن طريق الإيمان الذى يعمر الباطن بالرضـــاء والطمأنينة . وإلى هذا المعنى يشير الحديث النبوى الكريم : « . . . عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ! إِنَّ أَمْرَه كُلَّه لَهُ خَيرٌ ، ولَيْسَ ذلِكَ إلاَّ لِلْمُؤْمِنِ ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكان خَيْرًا لَهُ ، وإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ »[٢] . وَلقد صدق الله سبحانه إذ يقول : (. . وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ . . .)[٣] .

ومن أراد أن يعرف قيمة الإيمان والعقيدة فى مقابلة الإلحاد والزندقة فلينظر إلى حياة رجلين : أحدهما مؤمن مستقيم على سنن الإيمان ، والثانى زائغ حائد

---

(١) سورة النحل : ٩٧ .
(٢) رواه أحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه .
(٣) سورة العصر .

عن سنن الدين القيم . لا يؤمن بإله ولا ببعث ولا جزاء ، ولا يعتقد أن الله يحاسب كل نفس على ما قدمته من خير وشر ، فإنه سيرى لا محالة أن المؤمن بحق سعيد فى نفسه لأنه عرف ربه فطاب عيشه ، وثابر على العمل وصابر فى الخير . سعيد بربه لأنه أطاعه فحفظه وصانه وآمنه مما يخاف الآخرون ، سعيد فى جماعته لأنه أحسن معاملتهم ، ولم يكن جبارًا عتيًّا ، ولا ظالماً يأكل حقوق الناس فاطمأنوا له . وحفت قلوبهم به ، ووجدهم إلى جانبه أعواناً له فى السراء والضراء ، وسيلقى فى الأرض جزاء المؤمنين الصادقين وما أعد الله للصالحين من جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . يقول الله تعالى : (. . . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[1].

وأما ذلك الملحد الذى لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر فإنه إذا ما حدثته نفسه بالإساءة ، واستطاع أن يخفى جرمه . فإنه يكون آمناً على نفسه إذ لا يحسب حساباً ليوم آخر ، وهذا فساد فى الضمير وضياع للمصلحة العامة ، وإذا أصابه ضر يئس من رحمة الله . وإذا أصابه خير بطر وتجبر على عباد الله . وربما دفعه اليأس إلى محاولة التخلص من الحياة ، وهو شقى عند ربه فلا يقيه المخاوف ، ولا يحفظه من المكاره ، بل يصرف عنه عون الناس وحبهم ، وهو شقى فى جماعته ، لا يحب الخير إلا لنفسه ، ولا يحاول التودد إلى جماعته وقومه . ثم هو فى الآخرة من الخاسرين ، كما توعد الله الظالمين إذ يقول سبحانه : (. . إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ . أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . . .)[2].

(١) سورة يونس : ٩ و ١٠ . (٢) سورة يونس : ٧ و ٨ .

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال : « .. من شهد أَن لا إِلٰهَ إلا الله وحْدَه لا شَريك له ، وأَن محمدًا عبْده ورَسوله ، وأَن عِيسَى عَبْد اللهِ ورسُوله وكلِمَتُه أَلْقاها إلى مَرْيَمَ وَروحٌ مِنهُ ، والجنَّة حَقٌّ والنار حَقٌّ ، أَدْخلهُ اللهُ الجَنة على مَا كان من الْعَمل.. »[1] .

وعن أَبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَخرُجُ مِن النارِ مَنْ كان فى قلبِهِ مِثْقالُ ذرةٍ من إيمَانٍ » قال أَبو سعيد : فمن شك فليقرأْ (إن الله لا يَظلِمُ مثقالَ ذرةٍ)[2].

نسأَلُ الله أَن يرزقنا وإياكم الإيمان ويذيقنا حلاوته ، حتى نكون من السعداءِ فى دنياهم وآخرتهم إنه سميع قريب مجيب الدعوات .

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذى .

(٢) رواه الترمذى .

الإيمان بالجزاء الأخروى

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت ، المجازى لها بما عملت ، المحصى عليها ما قدمت وأخرت . وأشهد أن لا إله إلا الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأشهد أن محمدًا رسول الله ؛ أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وأصحابه إلى يوم يبعثون . . .

أما بعد . . فيقول الحسن البصرى : ما رأيت حقًّا أشبه بباطل من الموت . . .

وهذا تصوير دقيق لموقف الناس من هذه الحياة وما بعدها . فهم مع يقينهم باستحالة الخلود على ظهر الأرض ، ومع إحساسهم بأن الموت يفض المجامع ويحصد الآجال ، قلما يفكرون فى غدهم المرتقب ، ويستعدون له الاستعداد اللائق به ، لذلك كرر القرآن الكريم الإنذار بيوم اللقاء : (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)(١) ، (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً)(٢) ، (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ)(٣) ، (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)(٤) .

وقد أفاض القرآن الكريم فى ذكر مشاهد القيامة ، وأهوال الحشر والنشر ، وصور العذاب الأليم ؛ والنعيم المقيم ، حتى لا يذهل البشر وراء مآربهم ومطالبهم عن يوم الحساب ، وحتى لا يستغرقوا فى آلامهم وآمالهم

(١) سورة المطففين : ٦ .
(٢) سورة النبأ : ٤٠ .
(٣) سورة المجادلة : ٦ .
(٤) سورة الحاقة ١٨ .

فينسوا المستقبل الضخم الذى ينتظرهم عند الله .

إن الكافرين آمنوا بالمادة وجحدوا ما وراءها ، آمنوا بالحاضر وكفروا بالغيب . فكان هذا القصور سبب بوارهم (إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلا)[١] ، أما المؤمنون فقد انتفعوا بالأثر الحكيم : « ارتحلت الدنيا مدبرة وارتحلت الآخرة مقبلة ولكل منهما بنون ، فكونوا من أبناء الدار المقبلة ولا تكونوا من أبناء الدار المدبرة ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل »

* * *

وتذكّر الآخرة ليس تصوراً حالماً ليوم بعيد ، ولكنه نوع من التربية يقمع طبائع الشر بالرهبة ، ويغرى حوافز الخير بالرغبة . فإن المؤمن حين يلمح ببصيرته ما أعد الله لعباده فى الجنة والنار ، يغريه الطموح الشريف إلى الظفر بنعمة الله ورضوانه ، ويزعجه القلق البالغ من عذاب الله وسخطه ، فيكون سلوكه بين هذين الشعورين كريماً مستقيماً ، والمهم هو الاستيقان من أن الدار الآخرة حق ، مثل الاستيقان بأننا موجودون فى هذه الدار .

إننا سننتهى من هذه الدنيا حتماً ، وستنقضى هى الأخرى يوماً ما .

فهل كان خلقنا تسلية وعبثاً ، ومقامنا فيها فترة انتهت سدى ؟

كلا ، كلا ، فالله جل شأنه يقول : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)[٢] .

ويقول : (الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)[٣] .

---

(١) سورة الإنسان : ٢٧ .
(٢) سورة المؤمنون : ١١٥ .
(٣) سورة الملك : ٢ .

إنه لا مستقبل عند الله لمن لم يستفد من عمره علماً يرقى بعقله ، وأدباً يسمو بخلقه ، وتقوى تدعم علاقته بربه ، وتكون ذخرًا له عند لقائه .

إن الله سبحانه وتعالى ماجد عظيم ، وإن كماله الأسنى لا ترقى إلى كنهه العقول ، وإنه أوجد البشر تفضلا وأعطاهم - على ظهر هذا الكوكب الضيق - فرصة خطيرة لو أحسنوا استغلالها ، وإنه سبحانه وتعالى لن يمنح الخلود فى جواره الكريم إلاَّ لمن ينتهزون هذه الفرصة . . فترشحهم أعمالهم وأحوالهم للصعود إلى الرفيق الأعلى .

إن الله المجيد لا يقبل إلى جواره المجرمين .

إن الله العليم لا يقبل إلى جواره الجهلة .

إن الله طيب لا يقبل إلاَّ طيباً .

إن الله نظيف يحب النظافة .

إن السفلة الذين التصقوا بالتراب وعاشوا له ، لن يرتفعوا عنه .

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ)[1].

من الخير للإنسان أن يعلم علم اليقين ، أن عمره المحدود فى هذه الدنيا ، إن لم يكن وسيلة للتكمل والترقى ، فلن يشرق غده ولن يخرج منه بطائل ، فالجنة التى وعد الله بها المتقين لا تتسع لخسيس ولا مهين . وإذا لم يكن الإنسان على حظ من الكمال والفضيلة ، فلن يجد بها منزلا .

لما استكبر بها إبليس طرد منها وقال الله له : (فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)[2] . ولما غفل آدم عن حق ربه ، ووهنت فى الخير عزيمته أُخرج منها هو وزوجه ، وعرَّفهما الله عز وجل وعرَّف ذريتهما من بعدهما ، أن للجنة مستوى خاصًّا من الكمال ، من فقده

---

(١) سورة الأعراف : ٤٠ .

(٢) سورة الأعراف : ١٣ .

لم يبق لها أهلا ، (ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهَدَى)[١] .

فمن بقيت فى نفسه أثارة من شر وأدركه الموت ولم يتطهر منها حبس على شواطئ الآخرة ، ولم يدخل جنة ربه على تلك الحال .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : «يَخلُصُ الْمُؤْمِنُون من النَّارِ فَيُحْبَسُونَ على قنطرة بين الْجَنَّةِ والنَّارِ ، فَيُقْتَصُّ لِبعْضِهم من بعْضٍ مَظَالِمَ كانَتْ بَيْنَهُمْ فى الدُّنْيا ، حتى إذَا هُذِّبُوا ونُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فى دُخُولِ الْجَنَّةِ » .

أَرَأَيْتَ ؟ لا بُدَّ من تَهْذِيبٍ وتَنْقِية !

فمن لم يستو وينضج ويطب فى الدنيا انتظرته جهنم لتكمل له ما نقصه ، وتعوض ما فاته : (أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ، كَلاَّ ، إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ)[٢] .

لقد خلق الإنسان من أصول . فيها كدر وكثافة وهوان ، من حمإٍ مسنون ونطفة أمشاج ، وأمامه فى الدنيا فسحة من الأجل ، ينبغى أن يستغلها فى ترشيح نفسه للملإ الأعلى فيقهر أهواءه ، ويمسح أكداره ، ويرقق من طينته ، ويسمو بطبيعته ، ويتعهد روحه بالصقل والتهذيب حتى يطيب ويطهر : فإذا جاءته رسل ربه لتنقله إلى الدار الآخرة ، صدق فيه قول الله : (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون)[٣]. إن هناك أقواماً تشم فى أعمالهم نتن الطين الذى خلقوا منه ، وتلمح فى أخلاقهم كدره وسوداه ، هؤلاء ليسوا أصحاب الجنة مهما زعموا وأملوا ! !

* * *

---

(١) سورة طه : ١٢٢ .
(٢) سورة المعارج : ٣٨ و٣٩ .
(٣) سورة النحل : ٣٢ .

يعقد الإسلام صلة وثيقة بين فعل الخير فى الدنيا وما يعقبه من سعادة فى الآخرة ، كما يعقد الصلة نفسها بين اقتراف الشرور ، واستحقاق العذاب الأليم . وقد يحاول بعض الناس بأساليب ملتوية وعلل مكذوبة أن يشكك فى هذه الصلات القائمة ، ولكن هيهات ! !

فالمجرم لا بد أن يلقى عقوبته ، وأن يواجه الجزاء من جنس العمل ، (إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)(١) ، وعندما يتلاءم العصاة يوم القيامة ، ويحاول كل فريق منهم إلقاء التبعة على الآخر ليتنصل من الذنب ، ويفر من العقاب ، عندئذ يقرع آذانهم صوت الحق :

(قَالَ : لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ . مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ ، وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)(٢). والمحسن لا يتخلف عنه الوعد الحق ، ولا تنقص مكافأته على صالح عمله ذرة : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ . خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(٣) . ونحب أن ننبه إلى تلاعب طائفة من أدعياء العلم بالنصوص الواردة ، وخبثهم فى فصل العلاقة بين العمل وجزائه ، والاحتيال بذلك على تحقير مظهر الخير فى العمل الطيب ، ومظهر الشر فى العمل الفاسد . . .

والحيلة التى يتوسلون بها إلى ذلك ، إيهام الناس أن الجزاء مرتبط بالمشيئة العليا ، لا بعمل الإنسان . وأن الفسقة قد ينالهم العفو مهما ارتكبوا ، وينشد شاعرهم :

وإنِّى – وإن أوعدته أو وعدته – لَمُخْلِفُ إيعادِى ومُنْجِزُ مَوْعِدِى!!

---

(١) سورة يونس ٨١ و ٨٢ .
(٢) سورة ق : ٢٨ و ٢٩ .
(٣) سورة لقمان : ٨ و ٩ .

وأنه يجوز أن يدخل القانتون العابدون نار جهنم . . ! ! لأن الله لا يُسأل عما يفعل . وهذا كلام يخالف الحقائق المقررة فى دين الله .

والغرض منه ـ كما أسلفنا ـ إسقاط قيم الأعمال ، فلا يرهب أحد ذنباً ، ولا يرجو مؤمن حسنة ؛ وهذه الفلسفة الحقيرة أدت عملها فى إفساد الأمة الإسلامية وتلويث المجتمع وإهانة الدين وتعاليمه ، والله سبحانه وتعالى يكذب ذلك كله بأسلوب صريح :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ ما يَحْكُمُونَ)[1] . (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الأَرْضِ ؟ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ؟ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ)[2] .

إن أولى الألباب يوقنون بأن عموم المشيئة لا يعنى التسوية بين خائن وأمين ، وأن جواز العفو لا يعنى إبطال الشرائع وتعطيل القوانين .

إن البعث عقيدة فوق الشبهات ، فلنتهيأ له بالزاد الطيب ، من الهدى والتقى والعفاف .

خطب النبى صلى الله عليه وسلم أول بعثته فقال : « إن الرَّائِدَ لاَ يَكْذِبُ أَهْلَهُ ، واللهِ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُون ، ولَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ ، ولَتُجْزَوُنَّ بالإِحْسَانِ إِحْسَاناً ، وبِالسُّوءِ سُوءًا ؛ وإِنَّهَا لَجَنَّةٌ أَبَدًا ، أَوْ لَنَارٌ أَبَدًا » .

---

(١) سورة الجاثية : ٢١ .

(٢) سورة ص : ٢٨ و ٢٩ .

القضاء والقدر

الحمد لله الذى خلق كل شىء فأحسن خلقه ، وقدره فأحسن تقديره ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، أحاط بكل شىء علماً ، وأشهد أن محمدًا رسول الله أبر الناس خلقاً ، وأعدلهم حكماً . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد الذى بعثته مبشرًا ونذيرًا ، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان .

أما بعد ، فيقول الله سبحانه : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ)[1] .

عباد الله . . .

إنكم تعلمون أن المهندس الذى اخترع آلة يعلم تفصيلات أجزائها تمام العلم ، ويعرف طريقة عملها وسيرها ، ويعلم مقدار قوتها ومدى صلاحيتها . وتسمعون أن صانعى الأقمار الصناعية والصواريخ الدوارة الموجهة يعلمون علم اليقين اتجاهها وسرعتها والمناطق التى ستمر بها ، ويحددون أزمان مرورها على المدن تحديدًا يندر أن يتخلف .

فإذا كان هذا شأن العبد فكيف ينكر عاقل أن الله تعالى – وهو الخلاق العظيم والبصير العليم – يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات أو فى الأرض؟ وإذا كان من صفات العلم الإنسانى أنه محدود قاصر فإن من صفات العلم الإلٰهى أنه لا حدود له ولا قصور فيه ، لأنه العلم الكامل الشامل .

والعلم الإنسانى لا يتعلق إلا بالأشياء الموجودة فعلا ، لأنه نتيجة لها

---

(١) سورة الأنعام : ٥٩ .

وأثر من آثارها ، أما العلم الإلٰهى فإنه يشمل الماضى والحاضر والمستقبل ، لأنه السبب فى وجودها ، ولأنه علم أزلى أبدى خاص بالله وحده .

لا شك إذن فى أن بارئ الكون ورب الكاشفين والمخترعين يعلم علماً لا يتغير ، ويقدر تقديراً لا يتبدل ، وأنه فى علمه واسع شامل محيط بما كان ، وبما هو كائن ، وبما سيكون ، وبما ظهر وبما استتر ، لأنه سبحانه هو الخالق ، فلا بد أن يكون له من الصفات أكملها وأعلاها ، ولا بد أن يكون علمه أوسع علم وأدق علم .

ومعنى هذا أنه مالك الكون ، عليم بما يحدث فى ملكه علماً سابقاً للأحداث والوقائع ، فلا يقع فى ملكه حدث إلا موافقاً لإرادته وعلمه ، وهذا هو المعنى المختار للقضاء والقدر .

فالقضاء : هو الحكم والإرادة ، والقدر : هو التقدير والترتيب والتنظيم . وهذا المعنى يتردد فى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ، وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ . وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[2] .

والأحاديث النبوية تجرى على هذا النسق ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ ، حَتَّى العَجْزُ والْكَيْسُ » ، وهذا القضاء حتمىّ لا يتخلف ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا ، وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾[3] .

---

(١) سورة الرعد : ٨ و ٩ .
(٢) سورة النمل : ٧٤ و ٧٥ .
(٣) سورة الأنعام : ٣٤ .

وقال سبحانه : (لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[١] .

إننا نحن المسلمين نؤمن بقضاء الله وقدره إيماناً لا يتزعزع :

١ ـ لأننا نؤمن بعلم الله وقدرته وإرادته ، وندين بما يلائم عظمته وجلاله، ونصدق بكتابه الكريم ، وبأحاديث رسوله العظيم ، وبما تضمّناه من قضاء الله وقدره .

٢ ـ ولأن هذا الإيمان يعصمنا من الغرور ، إذا ما حالفنا نجاح وظفر ، فقد تسول للظافر نفسه أنه بجدّه وحده ظفر ، فيتمرد ، ويطغى ، وينسى أن يشكر ربه ، ويتغافل عن حقوق من حوله ، كما فعل قارون إذ أبطره ثراؤه ، وزعم أنه كسب المال الكثير بعلمه ، ونسي حق الله فيه فجعله الله نكالا وعظة لغيره ، قال تعالى : (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ، وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي . أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) . إلى أن قال تعالى : (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ، فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)[٢] .

٣ ـ على أن هذا الإيمان الذي يعصمنا من الغرور يباعد عنا الضعف واليأس والسخط ، إن نزل مكروه أو حدث إخفاق ، لأن المؤمن بالقضاء

(١) سورة الأنفال : ٦٨ .
(٢) سورة القصص : ٧٦ إلى ٨١ .

يصبر على ما نزل به ، ويستمد من صبره قوة على مغالبة عوامل القنوط والاستسلام للأحزان ، فيستأنف حياته فى جد مثمر ، وبعزيمة قوية ، وأمل متجدد ، وقلب متفتح .

٤ – ثم إن إيماننا بقضاء الله وقدره يبعث فى النفس كثيراً من الفضائل ، لأن المؤمن بالقضاء شجاع ، إذ أنه يعلم أنه لن يصيبه إلا ما سبق فى علم الله من موت أو حياة ، ومن سلامة أو مرض ، ومن نفع أو ضرر ، ومن فقر أو غنى ، وما أشبه هذا من أعراض الحياة الدنيا . والمؤمن بقضاء الله عزيز النفس لا يذلّ لأحد ، ولا يدنّس ضميره أو كرامته لقاء ثمن ؛ لأنه يعتقد أن النفع والضر بيد الله ، وقد سبق به علمه وقضاؤه ، فلو اجتمع الإنس والجن على أن ينفعوه أو يضروه فإنهم لا يستطيعون شيئاً ، سوى ما سبق به علم الله وقضاؤه . والمؤمن بالقضاء راض دائماً مستبشر دائماً ، متفائل فى جميع حالاته ، لأنه مطمئن إلى رحمة الله ولطفه وعدله .

٥ – ولا شك أن الإيمان بالقضاء والقدر يحفظنا من رذيلة الحقد والحسد والسخط ، لأن الذى يحسد غيره على نعمة أنعم الله بها عليه ساخط على قضاء الله ، والذى يحقد على ذى نعمة متبرمٌ بحظه من الحياة ، والذى يسخط على نصيبه من الدنيا ضعيف الثقة بقضاء الله .

٦ – ونحن إذ نؤمن بقضاء الله نؤمن بأنه سبحانه أوجب علينا أن نسعى وأن نعمل ، وأن نتخذ من الوسائل والأسباب ما يحقق غاياتنا المشروعة ، فلا كسل ولا تواكل . ولهذا نهانا سبحانه وتعالى عن تعريض أنفسنا للهلاك ، فقال : (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)[1] . وأمرنا بالسعى

(١) سورة البقرة : ١٩٥ .

والعمل للحصول على الرزق ، فقال : (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ، وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ) (١) .

كذلك تحض الأحاديث النبوية على العمل ، فقد جاء فى الأثر : «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا » ، وقال صلى الله عليه وسلم : «تداووا يا عباد الله ، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاء »(٢). وذلكم أن الأحداث قبل وقوعها سرّ محجوب عنا لا يعلمه إلا الله ، فعلينا أن نعمل وألا نتكاسل أو نقصر متعللين بالقضاء والقدر . روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه : «كنا فى جنازة ، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة فنكس ، وجعل ينكت بمخصرته ثم قال : ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة ، فقالوا : يا رسول الله أولا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال : اعملوا ، فكلّ ميسّر لما خلق له ، أما من كان من أهل الشقاوة فيصير لعمل أهل الشقاوة ، ومن كان من أهل السعادة فيصير لعمل أهل السعادة ، ثم قرأ قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) » (٣) .

والأحاديث النبوية كثيرة فى هذا المعنى ، كقوله صلى الله عليه وسلم : «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وفى كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، واسْتَعِنْ باللهِ ولا تَعْجِزْ ، وإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَو أَنِّى فَعَلْتُ كَذَا وكَذَا ، ولَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ اللهُ ، مَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ »(٤) .

---

(١) سورة الجمعة : ١٠ .
(٢) رواه أصحاب السنن .
(٣) رواه البخارى .
(٤) رواه مسلم .

عباد الله . . .

إن الإيمان بالقضاء والقدر نعمة على البشر، لأنه ظل وارف من الطمأنينة ، وفيض من الأمن والسكينة ، ولأنه حافز إلى قوة العزائم ، وباعث على العمل والعزة ، والشجاعة والصبر ؛ ووقاية من الشرور التى تصيب الأفراد والجماعات كالحسد والأثرة ، والشماتة والنفاق ، والجزع واليأس .

القضاء والحرية

الحمد لله الذى جعل الجنة ثواباً لمن أطاعه ، وجعل النار عقاباً لمن عصاه ، سبحانه لا يظلم عباده ، ولا يكلفهم إلا وسعهم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى بعثه الله رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

عباد الله . . . اطمأن سلفنا الصالح عن عقيدة وبصيرة إلى أن الإيمان بالقضاء والقدر لا يثبِّط عن العمل ، ولا يعوق عن السعى ، ولا يبيح الرضا بذلة أو مهانة أو ضعف ، بل إنه دافع إلى العمل ، باعث على الرضا بالنتائج فى غير سخط على الدهر ، أو كراهية للحياة ، ويأس واستسلام .

لهذا كان السلف الصالح يتخذون لكل أمر عدّته ، غير متواكلين أو مقصرين . فقد خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى الشام ، ولقيه بعض القواد وأخبروه بانتشار وباء بها ، فاستشار المهاجرين والأنصار ، فأجمع المهاجرون على الرجوع ، فاستجاب عمر لمشورتهم ، فقال له أبو عبيدة بن الجراح : أفرار من قدر الله ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها ، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، ولم يكتف عمر بذلك ، بل ضرب لأبى عبيدة مثالا محسوساً لا مندوحة من الاقتناع به ، إذ قال له : أرأيت لو كانت لك إبل هبطت وادياً له عدوتان – جانبان – إحداهما خصيبة والأخرى جديبة ، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجديبة رعيتها بقدر الله ؟ ولم يطق عمر أن يتعلل سارق بقضاء الله ، فقد جىء إليه بسارق ، فقال له : ما حملك على السرقة ؟ قال : قضاء الله وقدره ، فضربه ثلاثين سوطاً ، ثم قطع يده ، وقال له : قطعت يدك لسرقتك ،

وضربتك لكذبك على الله . وسئل ابن عمر عمن يرتكبون الموبقات ، ويقولون : كان ذلك فى علم الله ، فغضب وقال : كان ذلك فى علمه ، ولم يكن علمه يحملهم عليه .

أيها المسلمون . . تعلمون من هذا أن القدر لا ينافى حرية الإنسان فى أفعاله ولا يؤدى إلى قهر أو إجبار ، لأن قضاء الله منوط بعلمه القديم ، الذى لا يعلم الناس شيئاً منه حينما يقدمون على عمل أو يحجمون ، كما قال ابن عمر : كان ذلك فى علم الله ، ولم يكن علمه يحملهم عليه . ثم إن الإنسان مأمور بفعل الخير ، وموعود بالثواب عليه ، وقد نهاه الله عن عمل الشر ، وتوعده بالعقاب على ارتكابه ، ولا معنى للثواب والعقاب إلا أن يكون على عمل صادر عن حرية واختيار ، وإذا ما رجعنا إلى الآيات الكريمة التى يتضح منها هذا الفهم استطعنا أن نقسمها قسمين : القسم الأول : آيات تبين أن الإنسان مسئول عن عمله ، مثل قوله تعالى : (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)(١) . وقوله تعالى : (فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)(٢) .

وقوله تعالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)(٣) . وقوله تعالى : (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)(٤) .

والقسم الثانى آيات ترتب الجزاء على العمل ، مثل قوله تعالى : «وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ)(٥) . وقوله تعالى : (وَمَا

(١) سورة الطور : ٢١ .
(٢) سورة يونس : ١٠٨ .
(٣) سورة فصلت : ٤٦ .
(٤) سورة الأنعام : ١٦٤ .
(٥) سورة الزمر : ٧٠ .

أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ)[١] ..وقوله تعالى : (وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[٢] ، وقوله تعالى : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)[٣]. ونتبين من الآيات السابقة كلها أن الإنسان مسئول عن أعماله ؛ لأنه حر فى أفعاله . يثاب على الخير والطاعة ، ويعاقب على المعصية والشر . جزاءً وفاقاً لما عمل وقدَّم . وأن الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحدًا من خلقه .

عباد الله . . من السهل أن نتأول الآيات الكريمة التى قد توهم الجبر تأولا بعيدًا عن فكرة الجبر ، على ضوء ما تقدم من بيان . مثل قوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِى الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً)[٤] . وقوله تعالى : (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ)[٥] . وقوله تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)[٦]. فإن الغرض من هذه الآيات أن الله لو أراد أن يكون الناس جميعاً مؤمنين لأجبرهم على الإيمان ، ولكنه تركهم أحرارًا بعد أن أنار لهم طريق الهدى ، وحببه إليهم ، ورغبهم فيه . وبعد أن حذرهم من طريق الضلال ، وبغضه إليهم ، ونهاهم أن يسلكوه . لتكون الحرية والاختيار مناط الثواب والعقاب .

عباد الله . . فى القرآن الكريم آيات يتوهم الجبريون أنها تؤيد مذهبهم ، مثل قوله تعالى : (خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ، ولَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[٧] ، وقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام لقومه : (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ

---

(١) سورة الشورى : ٣٠ .
(٢) سورة الصافات : ٣٩ .
(٣) سورة الزلزلة : ٧ و ٨ .
(٤) سورة يونس : ٩٩ .
(٥) سورة الإنسان : ٣٠ .
(٦) سورة السجدة : ١٣ .
(٧) سورة البقرة : ٧ .

يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ)[١]. وقوله تعالى على لسان أهل الجنة : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ)[٢] .

لكن هذه الآيات وأمثالها لا تعنى الإجبار والإلزام ، بل تعنى أنه سبق فى علم الله تعالى أن بعض عباده سيصيرون على الكفر ، وتكذيب الأنبياء ، فقضى عليهم بما سبق فى علمه ، وهو أنهم عمى عن الحق ، صمٌّ عن الخير ، وسبق فى علمه أن بعض عباده سيسارعون إلى تصديق أنبيائه ، وإلى الإيمان به ، فقضى لهم بما سبق فى علمه من هداية وتوفيق . ولقد جاء هذا المعنى واضحاً فى آيات أخرى ، كقوله تعالى : (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ)[٣] فهذه الآية تبين أن الذين كذبوا الرسول بعد أن تبينت لهم الأدلة على صدقه هم الذين اختاروا لأنفسهم الضلال على الهدى ، وكان علم الله قد سبق إلى ذلك ، فجعلهم أهلا لما اختاروه ، وقضى بعقابهم على كفرهم .

وكذلك قوله تعالى : (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ)[٤] ، يوضح أن الفاسقين ضلوا ، وكان علم الله قد سجل إيثارهم للضلال ، فأضل الله قلوبهم ، فهم أحرار فيما اختاروا ، وهم مستحقون العقاب عليه .

وكذلك قوله تعالى : (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ ، وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ . فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً)[٥] فإن هذه الآية توضح أن الله سبحانه قد طبع على قلوب اليهود ، بسبب نقضهم العهد ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم أنبياءهم ، وزعمهم أن قلوبهم مغلقة دون الخير .

---

(١) سورة هود : ٣٤ .
(٢) سورة الأعراف : ٤٣ .
(٣) سورة النساء : ١١٥ .
(٤) سورة الصف : ٥ .
(٥) سورة النساء : ١٥٥ .

بقى أن أنبه إلى أن بعض الناس قد يقرأ قوله تعالى : (وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) ، فيتوهم أن الخطاب من الله تعالى إلى خلقه ، ولكن الحقيقة أن الخطاب من إبراهيم عليه السلام إلى قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام ، التى ينحتونها بأيديهم ، فهم وأصنامهم من خلق الله ، فلا يصح أن يعبدوها ، لأنهم صانعوها ، وهم والأحجار أو الأخشاب التى نحتوها منها مما خلق الله ، ويتبين هذا من الآية السابقة لهذه الآية ، وهى قوله تعالى على لسان إبراهيم ، قَالَ : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ، وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ؟)[1] .

أيها المسلمون . . .

هذا هو الفهم الصحيح لحرية العباد ، فى نطاق قضاء الله وقدره ، وَهَذا هُوَ المراد من قوله صلى الله عليه وسلم لما سأله سُرَاقَةُ بن مالِك قائلاً : يا رَسُولَ الله بيّن لنا دينَنَا ، كأنّنَا خُلِقْنَا الآنَ ، فِيمَ الْعَمَلُ ؟ أَفِيمَا جَفّتْ الأَقْلاَمُ وجَرَتِ الْمَقَادِيرُ ، أَم فِيمَا يُسْتَقْبَلُ ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فِيما جَفّتْ بهِ الأَقْلاَمُ وجَرَتِ الْمَقَادِيرُ ، قال سُرَاقة : فَفِيمَ الْعَمَلُ ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اعْمَلُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ ، وكلٌّ عامِلٌ بِعملِهِ » .

(١) سورة الصافات : ٩٥ و ٩٦ .

حقيقة التوكل واحترام السببية

الحمد لله ، مدبر الملك والملكوت ، المنفرد بالعزة والجبروت ، بيده مقاليد السموات والأرض ومصاير الخلق كافة . . . ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[1] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ، اتقى الله فوقاه ، وتوكل عليه فكفاه ، واعتمد عليه فآواه وأيده بنصره .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه الذين توكلوا على مدبر أمرهم ، ومالك ناصيتهم ، فأحاطهم بعوْنه فى الحياة ، ونعيمه بعد الممات ، أولئك هم المفلحون . أما بعد :

فإن من الإيمان تفويض الأمر لله ، والاعتماد عليه فى السعى فى الحياة ، واستمداد العون منه فى الشدة والرخاء ، والاعتقاد بأنه الإلٰه ، المدبر للملك والفعال لما يشاء ، وأنه بيده وحده ، الإعطاء والمنع والرزق والحرمان ، والنصر والهزيمة ، والتقدم والتأخر .

والتوكل على الله زاد المؤمنين فى الحياة ، يثبتهم عند الفزع ، ويدفعهم إلى الإقدام ، ويملأ قلوبهم بالعزة عند السؤال .

والمؤمنون يجدون فى توكلهم على الله راحة نفسية ، وطمأنينة قلبية ، فإذا أصابهم خير علموا أن الله المدبر هو الذى ساقه إليهم ، فحمدوه وشكروا له . وإن أصابتهم شدة أيقنوا أن الله هو الذى أصابهم بها ، اختبارًا لهم أو لمصلحة تعود عليهم .

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٢ .

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)[١] ، وقد أرشد الله المؤمنين إلى التوكل عليه ، ووصل قلوبهم به إذا سعوا فى الحياة لتحقيق مطلب ، أو لاستدفاع ضر ، حتى تكون يد الله فوق أيديهم ، وعنايته فوق تصرفهم : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)[٢] .

وإذا تخلى عون الله عن الإنسان فلن تغنى عنه قوته ومهارته ، ولا ذكاؤه واستعداده ، والمؤمنون فى أشد الساعات عندما تشتد الأهوال ، ويحزب الأمر ، وتكفهر الحياة ، لا يلتمسون إلا عون الله وفضله ، ولا يطلبون إلا رعايته ومدده ، وسرعان ما تزول عنهم بذلك الشدائد ، وتفرج الكربات ... (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ ، واللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)[٣] .

وقد كان هذا الزاد عماد الأنبياء فى جهادهم الشاق مع أعداء الله . وكان قولهم عندما يتألب عليهم الخصوم ، ويلجُّوا فى العناد : (وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)[٤] .

والله عز وجل قد حذر من الاعتماد على غيره فى طلب الرزق ، ليعيش الإنسان عزيز النفس ، مرفوع الرأس ، عالى الهمة ، وبين أن ما سوى الله عبد مسخر لا ينبغى الاعتماد عليه فقال : (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ)[٥] ، وقال : (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ

---

(١) سورة التوبة : ٥١ .
(٢) سورة الطلاق : ٣ .
(٣) سورة آل عمران : ١٧٣ و ١٧٤ .
(٤) سورة إبراهيم : ١٢ .
(٥) سورة الاعراف : ١٩٤ .

رِزْقًا ، فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)[١] ، وقال : (وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ)[٢] .

كما حذر من الاغترار بالقوة أو الكثرة أو السلاح عند مواجهة الخطوب فإن كل ذلك لا يجدى ما لم يكن معه من الله ظهير ومعين . وقد لقن الله المؤمنين درساً يوم حنين حينما أعجبوا بكثرتهم ، وظنوا أنها كافيتهم فى النصر على الأعداء : (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)[٣] .

والإسلام – وهو يرشد أتباعه إلى الاعتزاز بالله ، والثقة فيه ، والاعتماد عليه – يدعوهم إلى اتخاذ الأسباب ، والسعى لتحقيق المطالب والأغراض .

والله الخالق القدير قد لفت نظر الإنسان إلى الكون وما يحتويه ، ودعاه إلى التجول فى رحاب أرضه ، وتسلق قمم جباله ، و الغوص فى بحاره ، والبحث فى كواكبه وأفلاكه ، والاستفادة من خبراته : (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)[٤] ، وقال تعالى أيضاً : (هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وإِلَيْهِ النُّشُورُ)[٥] .

والتوكل على الله عمل جاد فى الحياة ، وثقة فى الله ، لا تواكل وكسل ، ولذلك يقول تعالى : (نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِين صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)[٦].

---

(١) سورة العنكبوت : ١٧ .
(٢) سورة المنافقون : ٧ .
(٣) سورة التوبة : ٢٥ و ٢٦ .
(٤) سورة إبراهيم : ٣٢ و ٣٣ .
(٥) سورة الملك : ١٥ .
(٦) سورة العنكبوت : ٥٨ و ٥٩ .

المسلمون الأولون كانوا عاملين ومتوكلين ، يخوضون ميادين الحياة فى التجارة والصناعة والزراعة ، والأبحاث الفكرية والعلمية ، أخذًا بالأسباب التى أرشدهم إليها الله ، وبذلك انفردوا بالسيادة والتقدم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رائد العاملين والآخذين بالأسباب ، ويحث الناس على العمل ، ويتعوذ بربه من العجز والكسل .

وقد بلى الإسلام فى العهود الأخيرة بطائفة من الكسالى والمتواكلين ، ظنوا القعود عن طلب الرزق توكلا ، وعاشوا عالة على العاملين ، وهم قادرون على العمل . فقد تكاسل رجل عن العمل ، وقعد عن أسباب الرزق فى عهد أحمد ابن حنبل ، ولما سأله الإمام عن سبب كسله وخموله قال : نظرت فى حديث رسول الله الذى يقول : « لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تَغْدُو خِمَاصاً وتَرُوحُ بِطَاناً »[1] ، فتوكلت على الذى يرزق الطير . فقال له الإمام : إنك لم تفقه الحديث . فقد ذكر الرسول أن للطير غدوًّا ورواحاً فى سبيل الرزق . ولو قعدت الطير فى وكناتها ولم تطلب الرزق ما كان يأتيها . واتخاذ الأسباب لا يتنافى مع التوكل على الله . فقد فرض الله على الإنسان أن يتخذ الأسباب مع الاعتماد على المسبب ، وهو الله وحده .

وتعاليم الإسلام تحذر من إهمال السبب ، فقد أهمل أعرابى بعيره من غير قيد أمام مسجد رسول الله وقال : توكلت على الله . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ »[2] ، وقد أمر الله المؤمنين باتخاذ أسباب القوة المادية لتكون بجانب القوة المعنوية فى خوض المعارك والحروب ،

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه .

(٢) رواه الترمذى وابن خزيمة والطبرانى .

فقال : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ)[١] .

وحينما أرشد المؤمنين إلى صلاة الخوف فى الحرب نهى عن إهمال السلاح لئلا يأخذهم العدو على غرة ، فقال : (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً)[٢] .

وفى ذلك يأمر الله باليقظة والحذر وعدم الغفلة والإهمال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا)[٣] .

وقد جاء إرشاد الإسلام واضحاً فى اتخاذ أسباب الوقاية من الأمراض ، وذلك لا يتنافى مع التوكل على الله . يقول النبى صلى الله عليه وسلم : «إِذَا سَمِعْتُمُ الطَّاعُونَ بِأَرْضٍ فَلا تَدْخُلُوهَا ، وإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا فَلاَ تَخْرُجُوا مِنْهَا»[٤] .

وهذا هو الحجر الصحى الذى تنادى به الأمم فى هذا العصر . قد سبق إليه الإسلام منذ قرون .

وحذر النبى صلى الله عليه وسلم من إهمال الأسباب فى ترك أوانى الطعام والشراب مكشوفة ، خشية من سقوط الحشرات الضارة التى تسبب الأمراض. فقال : «أَطْفِئُوا الْمَصَابِيحَ بِاللَّيْلِ إِذَا رَقَدْتُمْ ، وَأَوْكِئُوا الأَسْقِيَةَ ، وَخَمِّرُوا الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ»[٥] .

---

(١) سورة الأنفال : ٦٠ .
(٢) سورة النساء : ١٠٢ .
(٣) سورة النساء : ٧١ .
(٤) رواه البخارى .
(٥) رواه البخارى .

والإسلام يبين أن الأخذ بالأسباب فى الحياة طاعة ، والعمل من أجل إعفاف النفس والأهل عبادة ، والسعى لنفع الغير جهاد فى سبيل الله .

خرج المسلمون صباحاً فى يوم غزو فوجدوا شابًّا قد بكر بالعمل ، تبدو عليه القوة والنشاط ، فتمنوا أن يكون معهم فى الجهاد ، وقالوا : لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله ، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : «لَوْ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وُلْدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فى سَبِيلِ اللهِ . ولَوْ خَرَجَ لِيُعِفّ نَفْسَهُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ فَهُوَ فِى سَبِيلِ اللهِ . وَلَوْ خَرَجَ لِيَعُولَ أَبَوَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُو فِى سَبِيلِ اللهِ . ولَوْ خَرَجَ مُفَاخِرًا ومُكَاثِرًا فَهُوَ فِى سَبِيلِ الشَّيْطَانِ[1] » . والكسب الذى يجنيه المرء ثمرة سعيه ، ونتيجة جهده وكفاحه أطيبُ كسب وأشرفُه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَط خَيْرًا مِنْ أَنْ يأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِىَّ اللهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ »[2] .

---

(١) رواه الطبرانى .

(٢) رواه البخارى .

الصلاة وأثرها فى النفس

الحمد لله الذى سبحت الكائنات بحمده ، وعنت الوجوه لعظمته ومجده ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، جعل الصلاة على المؤمنين كتاباً موقوتاً ، وأشهد أن محمدًا رسول الله ، انتظمت العبادة فى حياته كما ينتظم فى مداره الفلك ، وفنى فى مرضاة ربه فما بلغ شأوه بشر ولا ملك ، اللهم صلِّ على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين .

أما بعد :

فإن الصلاة سكينة النفس ، وطهارة الروح ، ومظهر العلاقة الحقيقية بين المخلوق والخالق ، والضعيف والقوى . والفقير والغنى . فالناس يكونون فى أصدق أحوالهم وأزكى أوقاتهم ، عندما يقفون خشوعاً بين يدى ربهم الكبير ، يؤدون حقه ، ويرجون رفده ، ويطلبون هداه ، ويبدون خضوعهم المطلق له ، وحاجتهم الدائمة إليه . والمؤمنون مكلفون فى الغدو والآصال ، ومن قبل طلوع الشمس وبعد غروبها ، أن يترددوا على ساحة الله العظيم ، يتلون كتابه وقوفاً ، ويسبحون بحمده ركَّعاً وسجودًا ، ويُحيُّونه ويسلمون على نبيه جلوساً ، وهم فى هذه الأعمال المباركة يشعرون بما ينبغى لله من طاعة وتوقير ، وما يجب أن تكون عليه نفوسهم من طهر وصفاء . روى البخارى عن عبد الله ابن رواحة أنه كان يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتهجده بالقرآن ، وترتيله له فى صلاة الفجر فيقول :

وفينا رسول الله يتلو كتابَه ... إذا انشقّ مكنونٌ من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبُنا ... به موقناتٌ أنَّ ما قال واقع

يبيت يجافى جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

إن للصلاة فى الإسلام منزلة لا تعدلها منزلة أية عبادة أخرى ، فهى عماد الدين الذى لا يقوم إلا به ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ ، وعَمُودُهُ الصَّلاةُ ، وذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللهِ »(١) .

وهى أول ما أوجبه الله تعالى من العبادات ، تولى إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج من غير واسطة . قال أنس : « فُرِضَت الصَّلاةُ عَلى النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلم لَيْلَةَ أُسْرِى به خَمْسِينَ ، ثُمَّ نُقِصَتْ حَتَّى جُعِلَتْ خَمْساً ، ثم نودى يا محمد : إِنَّه لاَ يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ ، وإِنَّ لَكَ بِهَذِهِ الْخَمْسِ خَمْسِينَ »(٢) .

وهى أول ما يحاسب عليه العبد ، نقل عبد الله بن قرط قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَوَّلُ ما يُحَاسَبُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلاة ، فإِنْ صَلحَتْ صَلحَ سائِرُ عَمَلِهِ ، وإِنْ فسَدَت فسَدَ سَائِرُ عَمَله »(٣) .

وهى آخر وصية وصى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته عند مفارقة الدنيا ، جعل يقول ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة : « الصَّلاةَ الصَّلاةَ ، وَمَا مَلكَتْ أَيْمَانُكُم » .

وهى آخر ما يفقد من الدين ، فإن ضاعت ضاع الدين كله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لتُنْقَضَنَّ عُرَى الإِسْلامِ عُرْوَةً عُرْوة ، فكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بالَّتِى تَلِيهَا . فأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكم ، وآخِرهُنَّ الصَّلاة »(٤) .

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يرى أن الله سبحانه يذكر الصلاة ، ويقرنها

---

(١) رواه الطبرانى عن معاذ .
(٢) رواه أحمد والنسائى والترمذى وصححه .
(٣) رواه الطبرانى .
(٤) رواه ابن حبان من حديث أبى أمامة .

بالذكر تارة : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ)(١).
(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)(٢) ، (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)(٣)

وتارة يقرنها بالزكاة : (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)(٤) ، ومرة بالصبر :
(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ والصَّلَاةِ)(٥) ، وطوراً بالنسك : (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)(٦)
(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)(٧) .

وأحياناً يفتتح بها أعمال البر ويختتمها بها ، كما فى سورة « المعارج » وفى أول سورة « المؤمنون » : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . . .) إلى قوله : (. . . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)(٨) .

إن الصلاة واجبة على المسلم ما دامت روحه فى جسده ، فليس يجوز له أن يتكاسل عنها ، أو يفرط فيها ، فالمريض يتيمم إن لم يستطع الوضوء ، ويصلى قاعدًا أو بالإيماء ، إن كان مستلقياً على فراشه ، والمقاتلون فى ميادين الوغى مكلفون كذلك بالصلاة ، لا يجوز أن ينشغلوا عنها ، ولا أن يضيعوا أوقاتها ، نعم رخص الشارع الحكيم فى قصرها ، وأجاز فى حالة الحرب القيام بشتى الحركات خلالها ، قال تعالى : (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلهِ قَانِتِينَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)(٩).

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٥ .
(٢) سورة الأعلى : ١٤ و ١٥ .
(٣) سورة طه : ١٤ .
(٤) سورة البقرة : ١١٠ .
(٥) سورة البقرة : ٤٥ .
(٦) سورة الكوثر : ٢ .
(٧) سورة الأنعام : ١٦٢ و١٦٣ .
(٨) سورة المؤمنون : ١ و٢ و٩ و١٠ و١١ .
(٩) سورة البقرة : ٢٣٨ و٢٣٩ .

والواقع أن كل عمل له بداية ونهاية إلا ذكر الله جل شأنه ، فلا فراغ منه أبدًا ، والصلاة نوع من الذكر ، ومن هنا نظم القرآن الكريم أداءها فى أثناء القتال ، فقال جل شأنه : (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً . وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ، فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ، وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ، وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ، إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً . فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَاماً وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ، فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً)[1].

وقد شدد النكير على من يفرط فيها ، وهدد الذين يضيعونها ، فقال جل شأنه : (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ، وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)[2] ، وقال : (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)[3]

ولأن الصلاة من الأمور الكبرى التى تحتاج إلى هداية خاصة ، سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعله هو وذريته مقيماً لها ، فقال : (رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ)[4].

---

(١) سورة النساء : ١٠١ – ١٠٣ .
(٢) سورة مريم : ٥٩ .
(٣) سورة الماعون : ٤ و ٥ .
(٤) سورة إبراهيم : ٤٠ .

وإنما كانت عناية الإسلام بالصلاة على هذا النحو لما تضمنته من الأسرار النفسية ، والحكم الخلقية والاجتماعية .

وبتتبع النصوص الواردة فى الكتاب والسنة يمكن معرفة هذه الحكم والأسرار ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ يصَلِّى فإنَّه ينَاجِى رَبَّه» ، والمناجاة هى مخاطبة الله مباشرة وهى تشعر المرء بوجود الله وجودًا حقيقيًّا ، وأنه قريب منه ، يسمع دعاءه ، ويلبى نداءه ، ويستجيب لـــه .

وإذا واظب المصلى على هذه المناجاة خمس مرات فى اليوم والليلة ، تيقظت قواه الروحية ، وأحس أن الله يمده بالقوة والعون ، وأنه سبحانه معه لا يتخلى عنه ، فتقوى عزيمته ، وتشتد إرادته ، ويمضى إلى غايته دون تردد أو ضعف ، مهما اعترضته الصعاب والعقبات .

وإذا ظفر بمطلوبه ، وبلغ الذروة من الفوز والنجاح فإن ذلك لا يزهيه ويداخله الغرور ، ولو قدر أنه لم يبلغ ما يريد فإنه لا يحزن ، ولا ييأس ، بل يعيد المحاولة من جديد ، واثقاً بالله ، ومتوكلاً عليه . . هذا من جانب .

ومن جانب آخر فإن الصلاة انتزاع النفس من ماديات الحياة وآلامها ، وتوجيه لها إلى الله بالذكر والدعاء ، والضراعة والخضوع لكبريائه وعظمته . وهذا من شأنه أن يضفى على النفس السكينة والرضا ، ويجعلها تشعر بفيض من السعادة فتتجدد قواها ويحفزها ذلك على العمل الجاد والأمل فى وجه الله الكريم .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو بلالاً ليؤذن بالصلاة ، حين يشتد عليه الأمر فيقول : «أَرِحْنا بالصَّلاَةِ يَا بِلاَل»[1]. وكان يقول :

---

(١) رواه أحمد وأبو داود .

« . . . وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِى فِى الصَّلاَةِ »[١].

والإنسان لا يصل إلى القرب من الله ، ولا يسعد برضاه ، إلا إذا تطهر من الرذائل ، وسائر الصفات السيئة . يقول الله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)[٢]. والصلاة هى الوسيلة لهذا التطهر . لأن المواظبة عليها تربى فى المصلى ، الضمير الحىّ الذى يبعث على الخير، ويحض عليه ، ويمنع الشر ، ويحذر منه .

لهذا نجد الآية الكريمة تقول : (. . . إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ . .)[٣]. وبالإضافة إلى هذا فإن الصلاة تغرس فى النفس فضيلتى الثبات والكرم ، وهما من أكرم الخصال وأشرف الخلال . والمصلِّى إذا أفاض الله عليه النعم والآلاء لا يستأثر بها ، بل يشرك فيها غيره ، وإلى هذا تشير الآية : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً . إِلاَّ الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ)[٤] .

وإذا كانت الصلاة تكسب المرء سكينة النفس ، وتطبعه بطابع خلق جميل ، فإن هذه الصفات تجعل المقيم لها رضى النفس ، حسن الخلق ، عضوًا نافعاً فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وتخلق منه خلية حية تعمل وتنتج ، ويعم خيرها الناس .

ثم إن الإسلام حبب فى صلاة الجماعة ، وأوجب صلاة الجمعة كل أسبوع . واجتماع أهل الحى فى اليوم خمس مرات ، مع اجتماعهم يوم الجمعة اجتماعاً أوسع مدى ، يقوى الروابط الاجتماعية ، ويشد أواصر الصلات بين الجماعة ، ويشعر كل واحد بأنه أخ لكل من فى المسجد ، وأنه مساوٍ

---

(١) رواه أحمد وغيره .
(٢) سورة الأعلى : ١٤ و ١٥ .
(٣) سورة العنكبوت : ٤٥ .
(٤) سورة المعارج : ١٩ – ٢٣ .

له ، فتنمو روح المساواة الحقيقية ، لا فرق بين غنى وفقير ، ولا بين عظيم وحقير ، فكلهم عباد الله .

وبهذه الممارسة العملية للمساواة تنتفى فوارق اللون وفوارق الثراء ، وفوارق الدم ، فيشعر الفرد شعوراً حقيقياً بأنه للجماعة ، وتشعر الجماعة بأنها للفرد .

وهذه الغاية هى أسمى الغايات التى يجهد العلماء والحكماء والمربون والفلاسفة أنفسهم فى تحقيقها ، ليعم البشرية الأمن والسلام .

ويلاحظ أن هذه الحكم لا يمكن أن تتحقق إلا إذا أقبل المصلى على صلاته بوعى كامل ، ويقظة تامة ، وتأمل حقيق فى أقوال الصلاة وأفعالها . وهذا هو المعبر عنه بالخشوع ، فى قول الله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ) . فإذا تجردت الصلاة من هذا الوعى كانت قليلة الثمرة ، بل عديمة الجدوى ، ولنصغ إلى هذا الحديث القدسى الذى يرويه النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه : «إِنَّما أَتَقَبَّلُ الصَّلاَةَ ، مِمَّنْ تَواضَع بِها لِعَظَمَتِى ، ولَمْ يَسْتَطِلْ بِهَا على خَلْقِى ، ولَمْ يَبِتْ مُصِرًّا على مَعْصِيَتِى ، وقَطَع النهارَ فِى ذِكْرِى ، ورحمَ الْمِسْكينَ وابْنَ السَّبِيل والأَرْمَلَةَ ، ورَحِم الْمُصاب ، ذَلِكَ نُورهُ كَنُورِ الشَّمْسِ ، أَكْلَؤُهُ بِعِزَّتِى ، وأَستَحْفِظُهُ ملاَئِكَتِى ، أَجعلُ لَهُ مِن الظُّلْمةِ نُوراً ، ومن الجهالَةِ حِلْماً ، ومَثَلُهُ فى خَلْقِى كَمَثَلِ الفِرْدوْسِ فِى الجَنَّةِ »[1].

ولنتدبر قول الرسول صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : قسّمت الصَّلاَةَ بيْنِى وبيْن عبْدِى نِصْفيْن ولِعبْدِى ما سَأَلْ : فَإِذَا قَالَ : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رِبِّ الْعَالَمِينَ) قَالَ الله عزَّ وجَلَّ : حَمِدَنِى عَبْدِى ، وإِذَا قَالَ : (الرَّحْمَنِ

(١) رواه البزار عن ابن عباس .

الرَّحِيمِ) قال الله عز وجل : أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِى ، وإذا قال : (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) قالَ الله : مَجَّدَنِى عَبْدِى وفَوَّضَ إلَيَّ عَبْدِى ، وإذا قال : (إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِينُ) قال : هَذَا بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى ولِعَبْدِى مَا سَأَل . فإذا قال :(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّين) قال : هَذَا لِعَبْدِى ولِعَبْدِى مَا سَأَل[1].

---

(١) رواه مسلم .

الصيام والتربية الروحية

الحمد لله حق حمده ، حمدًا يتم نعمته ، ويزيل نقمته ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، خلق الناس حين خلقهم غنيًا عن طاعتهم، لأنه لا تنفعه طاعة من أطاعه ، كما لا تضره معصية من عصاه ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، علمنا كيف نخلص العبادة لله ، وأرشدنا إلى كلمة التقوى . صلى الله وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

أما بعد : فيقول الله سبحانه فى كتابه الكريم : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[1] .

أيها المسلمون : هذه الآية الكريمة تقرر أمرًا سماويًا يفرض الصيام على المؤمنين ، كما سبق أن فرض على أسلافهم من الأمم الأخرى . ثم تقرن الآية الفريضة بأثرها الذى يتوقع من القيام بها . وهو «التقوى» ، وهو أثر يحدث فى قلب المؤمن ، متى أدى فريضة الصيام على وجهها ، والتزم شروطها وآدابها ، فكأن الصيام ــ على ما تقرره الآية ــ وسيلة تربوية ، تتحقق بها تقوى القلب ، وخشوع الجوارح ، وهذا هو المقصود الأول من الفريضة .

ومن حكمة الخالق جل وعلا أن يتحدث إلى عباده مبيناً لهم الحكمة من أوامره ، والفائدة التى تعود عليهم من الإذعان لها ، برغم أنه هو الإله الخالق المقتدر ، ونحن عباده الضعفاء الفقراء إليه ، وهو القائل : (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ)[2] ، ومع

---

(١) سورة البقرة : ١٨٣ . (٢) سورة فاطر : ١٦ و١٧ .

ذلك نجد الحق سبحانه يعبر دائماً فى كتابه عن الحكمة التى رتبها على فرائضه ، فالصلاة عون للمؤمن على احتمال صروف الدهر :(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ)[١] ، والزكاة طهر للمؤمن ، ودرءٌ لمفاسد الحياة الاجتماعية : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)[٢] ، والحج موسم لنفع العباد ديناً ودنيا : (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ)[٣] ، وكذلك الصوم أعظم ما يتوقع منه أن يتقى المرء ربه . (ولِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)[٤].

وحسبنا من الصيام أنه يبث فى قلوبنا تقوى الله ، وهى جماع كل خير ، وأساس كل فضل فى حياة الناس ، فلم يترك القرآن عملا يكلف به المؤمن ، أو خلقاً يؤمر به – إلا جعله أثرًا لهذا المعنى النفسى العميق : « التقوى » وامتدادًا لمنازع الكمال التى تصدر عنه ، ومن هنا كان من حقيقة التقوى ما جاء من أمر المؤمنين بالصدق أو بالأمانة أو بالشجاعة أو بالصبر ، أو بالعفة ، أو بالعدل ، أو بالعفو ، أو بالرحمة ، أو بضبط النفس – فإن الإسلام يقرن ممارسة هذه الأخلاق بالتقوى ، كشرط فى أخلاق المؤمنين ، وكأثر ناتج عن سلوكهم الطيب النزيه .

ولذلك لا غرابة أن يكون الأثر الناشئُ عن الصيام هو التقوى ، أليس الصيام هو الصبر على الحرمان من ضرورات الحياة وشهواتها ، والصبر نصف الإيمان ، على ما حدَّث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والصابرون ينالون ثواب الله بلا حدود : (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)[٥].

أيها المسلمون : يمتاز الصيام عن جميع الفرائض الدينية بأمر جوهرى

---

(١) سورة البقرة : ٤٥ .
(٢) سورة التوبة : ١٠٣ .
(٣) سورة الحج : ٢٨ .
(٤) سورة الأعراف : ٢٦ .
(٥) سورة الزمر : ١٠ .

هو أنها جميعاً أعمال أو حركات إيجابية ، أما هو فامتناع باطنى لأنه مجرد تركٍ وكفٍّ للنفس عن بعض ما تعودته ، فإذا كانت الصلاة قياماً وركوعاً وسجودًا ، فإن الوسيلة إلى ذلك أن تتحرك الجوارح لأداء هذه الحركات الإيجابية ، فى جماعة مشهودة ، يحرص عليها المؤمن ، لأنها أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، وكذلك الزكاة عطاء إيجابى لحق الله ، وتوصيله إلى يد مستحقه سائلاً كان أو محروماً ، وكذلك الحج ، سفر وسعى ، وتضحية بالوقت والمال ، وتعب يتحمله البدن ، ومتعة يتذوقها المؤمن بكل جوارحه ، حين يطالع بيت الله ، ومهبط الوحى ، ومنزل الرحمة ، ومسجد النبى ، رسول الرحمة إلى العالمين .

أما الصوم فهو فى الحقيقة إيقاف لبعض الوظائف العضوية فى جسم الإنسان ، وتعطيل لها إلى فترة محدودة . سواء أكان صياماً اختياريًّا على سبيل التطوع ، أم إجباريًّا على وجه الفريضة . فإذا كانت المعدة قد تعودت أن تعمل ثلاث مرات بانتظام كل يوم ، فإنها فى حال الصيام تعمل مرتين . فى موعد مختلف ، تشعر معه بالفراغ ، ويحس معه المرء بإحساس الجوع والعطش طول النهار .

وإذا كان المزاج قد تعود أن يشم دخاناً ، فإنه فى حال الصيام لا يستطيع أن يتعاطاه .

وإذا كان اللسان قد تعود أن يتناول سير الناس ، وأعراضهم بالنقد والتجريح والمشاتمة ، فإن الصيام بمثابة اللجام الذى يلجمه ويفحمه ، وكذلك شأن بقية الجوارح ، كالعين والأذن ، واليد والرجل ، كما يمتنع الرجل عن شهوته التى أحلها الله له مع أهله ، وكل ذلك ضبط لأجهزة البدن ، وتعطيل لها عن وظائف تعودتها فى حال الإفطار ، ولو كان الأمر مقتصراً على جانب

أو عضو واحد من أعضاء الجسم لهان ، ولكنه الجسم كله ، بجميع قواه ، والإنسان بجميع عاداته وأخلاقه التى ألفها ، ومن هنا تأتى مشقة الصيام ، فهو حرمان يقوم عليه المؤمن ، ولكنه الحرمان الذى يبنى شخصيته ، ويربى أخلاقه .

وحسبنا من فراغ المعدة راحتها من التخمة وعسر الهضم ، وما يترتب على فراغها من صفاء الذهن وسلامة التفكير .

وحسبنا من كف الجوارح تأديب المرء عن كثير من الرذائل التى ألفها ، وتعود الولوغ فيها ، فلن يُعَدَّ الصائم صائماً حتى يكف عن النظر إلى العورات ، وحتى يحفظ لسانه عن التحدث بالباطل ، فلا يكذب ، ولا يغتاب ، ولا يسير بين الناس بالنميمة ، ولا يشتم عرضاً ، ولا يتعلق بلغو الحديث ، وقد قال تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)[1] ، فجعل الإعراض عن اللغو هو الصفة الثانية من صفات المؤمنين بعد الصلاة ، وربما كانَ المراد بها الصوم ، لأن المطلوب فى هذِهِ الصفة هو الإمساك عن اللغو ، وهو جوهر الصيام وحقيقته ، ولأنه جاء بعدها بقوله : (وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)[2] ، فقد وصفهم القرآن إذن بأداء الصلاة والصيام والزكاة ، وقد جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ والعمل به فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فى أَنْ يَدَع طَعَامَهُ وَشَرابَه »[3].

وإذا ظن بعض الناس أن الصيام هو الإمساك عن الأكل والشرب والشهوة ، وما عدا ذلك فهو مباح فإن الأئمة من السلف الصالح كانوا يعدون الانحراف عن آداب الدين فى أثناء الصيام من دواعى الإفطار ، بل لقد بالغ بعضهم

---

(١) سورة المؤمنون ١ – ٣ . (٢) سورة المؤمنون : ٤ . (٣) رواه البخارى .

فجعل من أحوال الصيام أن يمسك القلب عن التفكير فى أمور الدنيا ، وأن ينصرف إلى ذكر الله وحده والتدبر فى أمور الآخرة ، ومصاير العباد ، بحيث إذا ترك العبد هذه الحال لحظة واحدة فإنه يكون قد أفطر ، وتلك هى رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين .

أما نحن فلا نطيق هذا الأدب ، ولكن يكفينا أن نعيش أيام الصيام فى محاولة لتربية النفس على أخلاق الإسلام ، وأخذها بأحكامه ، ليكون لصيامنا أثر إيجابى فى المجتمع ، إلى جانب أنه عبادة خفية ، ليس فيها ظهور ، ولا يمكن أن يخالطها رياء ، ومن ثم قال الله عز وجل ، فى حديث قدسى : « كُلُّ عمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إلاَّ الصَّوْمَ فإنَّهُ لِى ، وَأَنَا أَجْزِى بِهِ »[1] ، فالله سبحانه ينسب الصوم إلى ذاته نسب تشريف ، وإن كانت العبادات كلها له ، كَمَا نسب البيت إلى نفسه تشريفاً له ، والأرض كلها له ، يورثها من يشاءُ من عباده .

أيها المسلمون : هذا هو الصيام الذى أراده الله لكم ، لعلكُم تتقون ، لهدف هو التقوى ، التى سلك إليها الدين سبلا كثيرة ، ووصف لها وسائل كثيرة منها الصيام . وإذا لم يتوافر للمؤمن شعور بتقوى الله فى نهاية صومه فليعلم أنه قد أخل بعمله ، فلم يؤد العبادة على وجهها الصحيح الذى يحدث التقوى .

أيها المسلمون : إن الصيام سر بين العبد وربه ، وجدير بمن تعود هذه الحال أن يجعل أكثر أعماله سرًّا بينه وبين الله ، ولذا رأينا الدين يأمر بالتزام هذا الأدب فى الصدقة : « وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنفِقُ يَمِينُه »[2] .

---

(١) رواه البخارى . (٢) من حديث (سبعة يظلهم الله فى ظله) رواه البخارى ومسلم .

كما يأمر بالتزامه فى ذكر الله : (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً)[1] . فالصائمُ الذى التزم أن يجعل عبادته بعيدة عن الرياء تتحقق له التقوى فى غير الصّوم ، كالذكر والصدقة .

والصيام حرمان وتجويع للبدن ، وللنفس ، ومقتضى ذلك أن يتخلق فى إرادة المؤمن شعور بالمقاومة المستمرة لكل إحساس بالضعف ، ولكل رغبة فى الممنوع المحرم خلال النهار ، مهما كثرت المغريات ، ومهما تبذلت الشهوات ، فى الشوارع والطرقات ، فإذا اجتاز الصائم الامتحان ، ونجح فى اكتساب التقوى كان ذلك عوناً له على استمرار المقاومة ، وتقوية لإرادته فى مواجهة الشهوات والتحديات ، فكل موقف تواجه فيه عورة مكشوفة ، أو رغبة ملحة ، أو بلاءً اجتماعيًا – هو فى الواقع امتحان متجدد لإرادتك ، تنفعك فيه التقوى التى تحققت لك بالصيام ، وليس من العقل أن نلقى سقطاتنا وسيئاتنا على مسئولية الشيطان ، فنحن مسئولون عما نفعل ، مأخوذون بذنوبنا ، تماماً مثله ، واستمعوا إلى قول الله سبحانه : (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ، وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، ووَجَدوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً ، وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً)[2] .

وقد أمرنا النبى صلى الله عليه وسلم أن نستخدم الصوم والجوع سلاحاً ضد الشيطان ، وحذر من الشبع وعواقبه ، وسار على ذلك الصحابة المهديون من بعده ، قالت عائشة رضى الله عنها : «أول بلاء حدث فى هذه الأمة

---

(١) سورة الأعراف : ٢٠ .
(٢) سورة الكهف : ٤٩ و ٥٠ .

بعد نبيها الشبع ، فإن القوم لمَّا شبعت بطونهم سمنت أبدانهم ، فضعفت قلوبهم ، وجمحت شهواتهم »[١] .

ولو استطاع المؤمن أن يقيد نفسه بأدب الدين لقهر شيطانه ، وقهرُ الشيطان نصرٌ لله ، والله يقول : (إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)[٢]. وما أحوجنا فى أيامنا هذه ، وفى مواجهة الأعداء المتربصين داخل الوطن العربى وخارجه إلى أن ينصرنا الله ، ويثبت أقدامنا المتزلزلة ، كما ثبت أقدام المسلمين فى رمضان ، أمام مشركى بدر ، وفى فتح مكة .

فاتقوا الله أيها المسلمون ، واعلموا أن الله جعل للصيام شهرًا كاملا ، وجعله عبادة للمجتمع بأسره ، ليكون الإصلاح شاملا ، فى الأبدان ، وفى الأنفس . وليس ببعيد ولا بعزيز على الله أن يكتب لنا النصر الساحق على العدو ، فى أعقاب الصيام كما فتح على النبى وصحبه فى بدر والفتح ، فى رمضان ، وذلك إذا ما صلحت نفوسنا ، وتطهرت من النقائص والأحقاد ، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا صدقت إرادة التغيير فى أنفسنا فعلينا أن نحولها إلى واقع ، يتمثل فى سلوك نظيف ، وفى لسان عفيف ، وفى تعامل نزيه لا شبهة فيه ، (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)[٣] .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة : « فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ وَلا يَصْخَبْ ، فَإِنْ سابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ : إِنِّى صَائِمٌ إِنِّى صَائِمٌ ، والَّذِى نَفْسُ مُحمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا ، إِذا أَفْطَرَ فرح

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الضعفاء .

(٢) سورة محمد : ٧ .

(٣) سورة البقرة : ١٩٧ .

بِفِطْرِهِ ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ »[١] .

وعنه أيضاً أنه قال : « إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ . وغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ ، وصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ »[٢]

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه البخارى .

التوبة تجديد دائم للحياة

الحمد لله رب العالمين ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، وأشهد أن لا إله إلا الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات فضلا منه ونعمة . وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله إمام العابدين وسيد التائبين . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه المقتدين به المتبعين لسنته أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون .

أما بعد ؛ فيقول الله تعالى :

(فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ)(١) .

أيها المسلمون :

إن الإسلام يدعو إلى الاستمساك بالحق والاعتصام به ، وفعل الخير والحرص عليه وعلى كل ما يصون المبادئ المثلى ، ويحفظ المثل العليا ، معلناً أن ذلك ضمان الكمال للإنسان ، وبلوغه الذروة ، وجعله جديرًا بالخلافة عن الله فى أرضه .

وكثيرًا ما يضل الإنسان الطريق وينحرف عنه بوازع من الجهل أو استجابة لإغراء عابث أو شهوة جامحة ، الأمر الذى يهبط بمستواه الإنسانى ويحول بينه وبين التطهر والتسامى فتسقط قيمته ، وينحط إلى الدرك الذى يعوقه عن النهوض بتبعات الحق والخير . وتتجه قواه كلها إلى تحقيق ذاتيته وإشباع غرائزه ، وإيثاره مصالحه الخاصة ، وتنكره للمصالح العامة.

---

(١) سورة الزخرف : ٤٣ و ٤٤ .

ويوم تخلو الدنيا من الضمائر والمثل تتحول الحياة إلى صراع يكون أشد هولا وأبعد أثرًا من صراع الحيوانات المفترسة فى الغابات .

والإنسان قد تمر به ساعة تنام فيها قواه الروحية ويغفو فيها ضميره وتستيقظ غرائزه ويسقط صريع الهوى والشهوة .

وفى خلال هذه المحنة فإن عليه أن يذكر أنه لم يخلق ملكاً كريماً ، ولا بشرًا معصوماً ، وإنما هو إنسان تتنازعه قوى الخير والشر . فتارة تتغلب عليه طبيعة الخير الروحية فيسمو ويرتفع ، وتارة أخرى تتغلب طبيعة الشر فيخلد إلى الأرض ويتردى فى حمأة الرذيلة ، وإن على الإنسان فى هذه الحالة أن يصحح أخطاءه ، ويعالج أمراضه ، ويغسل نفسه مما يكون قد ران عليها ، ويستأنف العمل فى الحياة فى ثوب نقى نظيف . قال تعالى : (وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) . والتوبة واجبة من جميع الذنوب ما ظهر منها وما بطن .

يقول صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ »[1] . والتائبُ عبد رجع عما نهى الله عنه إلى ما أمر به وطلبه ، وعن معصيَته إلى طاعته وطلب ودّه، وعما يكرهه إلى ما رضيه وأحبه وهى تنظم الشعور بالألم .

والتوبة تنتظم الشعور بالألم الذى يقضّ على الإنسان مضجعه ، ويؤرق منه منامه ، ويزرع فى قلبه الحسرة والندامة ، ويدفعه إلى الإقلاع عما تورط فيه من الرذيلة والعزم الأكيد على استئناف حياة صالحة فيما يستقبل من عمره ؛ فإن كانت حقوق للعباد ردها أو تحلل منها ، ومن ثم يقبل الله توبته ، ويغفر زلته ويكون من الصالحين من خليقته . قال تعالى :

(١) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم من أنس .

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً)[١] توبة خالصة لوجه الله تعالى ليست لغرض أبدًا . توبة يرد صاحبها الحق . وتنأى به عن الباطل . توبة مخلصة تخلع على صاحبها ثوب العافية فى دينه . وتمزق الحجب بينه وبين خالقه ، ويقول سبحانه : (وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُون)[٢] ، وعن أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال : « للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سقَطَ عَلى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ بِأَرْضٍ فَلاَة » [أَىْ وَجَدَ بَعِيرَهُ بَعْدَ أَنْ فَقَدَهُ فِى صَحْرَاء][٣] وذلك يعنى المزيد من رضوان الله يوجبه للتائبين قال تعالى : (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) .

ومن رحمة الله سبحانه أن فتح باب الأمل والرجاء أمام المخطئين ليتوب مسيئهم ، ويثوب إلى رشده شاردهم ، ويغفر لهم ما اقترفوا من إثم أو معصية ، قال تعالى : (قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[٤] ، وفى الحديث القدسى قال الله تعالى : « يا ابْن آدم إِنَّكَ ما دعوْتَنى ورجوْتَنِى غَفَرْتُ لك على ما كَانَ مِنْكَ ولا أُبالِى . يا ابْن آدم لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُك عَنَانَ السَّمَاء ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِى غَفَرْتُ لَكَ ولا أُبَالى . يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ أَتَيْتَنى بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِى لا تُشْرِكُ بِى شَيْئاً لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرةً »[٥] . أيها المسلمون إن فضل الله على عباده عظيم ، ورحمته بهم واسعة . وأبوابه بين أيديهم مفتّحة ، فهو يبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ، ويبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار . فعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) سورة التحريم : ٨ .
(٢) سورة الشورى : ٢٥ .
(٣) رواه البخارى ومسلم .
(٤) سورة الزمر : ٥٣ .
(٥) رواه الترمذى .

وسلم قال : «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها» .

وليست التوبة بالأمر الذى يشق على الإنسان أو يتعذر عليه فعله ، فإن يقظة الضمير ، والشعور بالانحراف عن المنهج السوى ، ومحاولة العودة إليه والثبات عليه ، فى نظر الإسلام توبة .

كما أن ذكر الله عز وجل والإحساس بالتقصير فى حقه والتفريط فى جنبه والإسراع إلى الإنابة والاستغفار ، والرجوع إلى إصلاح الخطإ من قريب ، والعمل على صلاح النفس وحياة القلب وبعث الضمير – كل هذه توبة . فعن أبى سعيد الخُدْرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس فى أخيّته [الأخيّة : العروة فى الأرض أو العود فى الحائط تشد إليه الدابة] يجول ثم يرجع إلى أخيّته ، وإن المؤمن ينسهو ثم يرجع ، فأطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين »[1] .

أما أولئك الذين يصرون على الإثم ويتمادون فيه فإنهم قلما يشعرون بالألم الباعث على الندم بما يعيشون فيه من فراغ روحى ، وموت أدبى أورثهم الهوان . وسلكهم فى جحيم الحرمان قال تعالى : (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وهُمْ يَعْلَمُونَ . أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)[2].

والتوبة لا تعنى الضراعة باللسان أو التذلل والتخشع الظاهر من غير دليل أو برهان .

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه .

(٢) سورة آل عمران : ١٣٥ – ١٣٦ .

فحتى تكون التوبة صادقة فإنه لا بد معها من العمل الصالح المقترن بعمق الإخلاص وقوة اليقين . قال تعالى : (وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى)[١] .

والعمل الصالح لا يقف عند لون معين من صلاة أو حج أو زكاة ، فحسن الخلق يكفر الخطايا ، والجهاد فى سبيل الله يمحو الذنوب ويرفع الدرجات ، والصبر على الشدائد مذهب للسيئات ، وكثرة الاستغفار وذكر الله عز وجل من أعظم ما يدفع الله به الشر ويحقق به الخير ويطهر به القلوب من دنس الرذيلة ، واجتناب الكبائر ، وحسن الظن بالله ، كل أولئك يكرم الله به العبد وينفى دنسه ، ويرفع به قدره ، ويذهب عنه به رجسه ، ويطهره تطهيراً . قال تعالى : (وأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وزُلَفًا من اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ. واصْبِرْ فإنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المَحْسِنينَ) . وعن أبى ذر ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اتق اللهَ حيثما كنت ، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها ، وخالق الناسَ بخلق حسن »[٢].

وما أجمل هذا التصوير لانسلاخ الإنسان المسلم من ذنوبه حين يأتى الخير ويفعل المعروف . فعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « إن مثل الذى يعمل السيئاتِ ثم يعمل الحسناتِ كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل حسنة أخرى فانفكت أخرى حتى يخرج إلى الأرض »[٣] .

أيها المسلمون : إنه لعجيب أن يبارز العبد مولاه بالعصيان وخيرُه إليه

---

(١) سورة طه : ٨٢ . (٢) رواه الترمذى بسند حسن .

(٣) رواه أحمد والطبرانى الترغيب والترهيب ص ٩ – ٤ .

نازل ، وأن يستخدم نعمه فيما يغضبه ، وهو يؤمن بأنه على حبسها عنه قادر ، ويغفل عن مولاه ونعماؤه تذكره به فى كل شأنه ، وينسى نظره إليه وهو أقرب إليه من نفسه . فليتق الله امرؤ خالطت بشاشةُ الإيمان قلبَه ، وليذكر أن الناقد بصير ، وأنه : (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا) (١) .

ولتعلم أيها المسلم أن ذلك وحده عنوان إيمانك ، وأمارة الخشية لله عز وجل خالقك ، قال سبحانه : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِين إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِين يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كَرِيمٌ)(٢).

إن ذكر الله عز وجل يعنى ألَّا ينساه العبد فى شأن من شئونه. فحركته وسكونه ، ويقظته ومنامه وفراغه وشغله ، كل ذلك لا بد أن يكون المؤمنُ فيه ذاكرًا لمولاه ، موقناً برقابته الدائمة عليه ، فى كل ما يأتى ويذر . ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الله مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ »(٣).

فحيث يكون المؤمن لا بد أن يكون هذا شأنه ، وبذلك يصبح أهلاً لعون الله فى الشدة والرخاء والعسر واليسر . ويمنحه من الصبر ما به يقهر عوامل الشر فى نفسه . ويصير أهلا لعفو الله عنه ، وتقبُّلِه صالحَ عمله ، فإنما يتقبل الله من المتقين .

---

(١) سورة المجادلة ٧ .
(٢) سورة الأنفال : ٢ – ٤ .
(٣) رواه الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية .

اذكروا دائماً أيها المؤمنون ، أن اليوم عمل بلا حساب ، وغداً حساب ولا عمل . وأنه إذا كانت نظرة الخلق إليك تحجزك عن المعصية ، فإن الله أولى بذلك منك . فأصلح ما بينك وبينه ، وتقرب إليه بطاعتك عسى أن تكون ممن قال الله فيهم : (إلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيماً)[1] .

قال صلى الله عليه وسلم : «يـأَيُّهَا النَّاسُ تُوبوا إلى اللهِ واسْتَغْفِرُوهُ فَإِنِّى أَتُوبُ إِلَيْهِ فِى الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّة »[2] ، وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : «قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سَبْىٌ ، فَإِذَا امرأة من السَّبْىِ تبحث عن صَبِيٍّهَا ، وكَانَ ضائعاً ، فلما وجَدَتْهُ أخذته فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وأَرضَعتْهُ ، فقال لنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلَّم : أترون هذه طارحةً وَلَدَهَا فى النَّارِ ؟ قلنا : لا والله ، وهى تقدر ألا تَطرَحَه ، فقال : لَلهُ أَرحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِه بوَلَدِها »[3].

---

(١) سورة الفرقان : ٧٠.

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

الحج وحكمته فى الإسلام

الحمد لله الذى جعل البيت مثابة للناس وأمناً ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، جعل حج البيت من الشريعة ركناً ، وصرف وجوهنا إلى قبلته ، فكان ذلك من نعمه العظمى . وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، خير من طاف بالبيت العتيق ، ذاكرًا أسماء ربه الحسنى ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه الهداة الأكرمين ، إلى يوم الدين.

أما بعد : فيقول الحق سبحانه فى كتابه الكريم : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)[1].

أيها المسلمون : هذه أيام فريضة من أعظم فرائض الإسلام . فريضة الحج إلى بيت الله الحرام ، وهى دَيْن على المستطيع من الناس ، واجب الأداء لله واهب النعم ، ولذلك قال سبحانه : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا) .

ومن المعلوم لدى كل مسلم أن فرائض هذا الدين قد روعى فى تشريعها دائماً أن تكون ذات نفع فردى : دنيوى وأخروى ، وذات نفع جماعى ، يتحقق للجماعة المسلمة ، متى أدت الفريضة على وجهها ، كما أمر الله ، ولا ريب أن هذا النفع الجماعى مع النفع الفردى ، هو ضمن المقصود من قوله صلى الله عليه وسلم بشأن صلاة الجماعة : « صَلاَةُ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلُ مِنْ صلاَةِ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً »[2].

والحج من العبادات التى يتحقق بها للمسلم الفذّ ، وللجماعة المسلمة

---

(١) سورة آل عمران : ٩٧ . (٢) رواه البخارى ومسلم .

منافع كثيرة متى التزم الناس فى أدائه آدابه وشعائره . فأما ما يعود على المسلم من الحج ، إلى جانب أدائه للفرض فإننا نقف منه على أمور ثلاثة :

أولها : تلك المعاينة المثيرة لوجدان المؤمنين ، حين يواجهون بيت الله الحرام ، أو حين يطالعون قبر النبى عليه الصلاة والسلام ، وهم الذين طالما توجهوا إلى الكعبة وتخيلوا مشهدها ، وتشوقوا إلى الطواف حولها ، كلما وقفو بين يدى الله فى صلاتهم ، هذه المعاينة تربط المؤمن ربطاً مباشراً بشعائر دينه ، وهى تتم فى جو رائع ، أقبلت فيه مئات الألوف من المؤمنين ، على هذه المعاينة المباركة ، وفى ذلك حياة ، أى حياة لمشاعر حجاج بيت الله .

وثانيها : أن المؤمن يقضى فترة طويلة لا هم له إلا الذكر والتلبية ، والتجرد لهما من كل شواغل الحياة الدنيا . لقد قضى عمراً طويلا فى أمور معاشه العاجل ، وآن له أن يهتم بتقديم شىء لمصيره الآجل ، وليس كالذكر والتلبية وسيلة إلى التقرب من حضرة ذى الجلال ، وهو ذكر يحدث فى أطهر بقعة على ظهر الأرض ، وفى ظروف تجرد تام ، يرفع الدعاء إلى مستوى الاستجابة : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)[1].

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ)[2]. (وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ)[3].

ومن المأثور فى هذا عن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إِنَّ داوُدَ النَّبِىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قال : إِلٰهِى ، مَا لِعِبَادِكَ عَلَيْكَ إذا هُمْ زَارُوكَ فِى بيْتِكَ ؟ . . قال : إِنَّ لِكُلِّ زَائِرٍ حَقًّا عَلَى الْمَزُور ،

(١) سورة البقرة : ١٨٦ .
(٢) سورة غافر : ٦٠ .
(٣) سورة الشورى : ٢٦.

يَا دَاوُدُ : لَهُمْ عَلَيَّ حق أَنْ أُعَافِيَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وأَغْفِرَ لَهُمْ إِذَا لَقِيتُهُمْ »[١].

وثالث ما يعود على المسلم من الحج : تجربة تربوية لا يتعرض لمثلها مدة حياته أبدًا ، ذلك أن الدين يفرض على سلوك المؤمن رقابة صارمة ، لا تفوت له أدنى مخالفة ، بل إنها لتحاسبه حساباً عسيرًا على كل ما يرتكب من مخالفات ولو يسيرة . وقد حددت الآية القرآنية المحظورات فى قوله تعالى : (فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ)[٢] ، وهذه المحظورات قد يستوجب فعلها فرض عقوبة على مرتكبها ، من صدقة أو إهراق دم ، غير أن ذلك يتم ضبطه بوساطة المؤمن نفسه ، لا بوساطة سلطة دينية أو دنيوية ، وهكذا ينصب الإسلام من المؤمن رقيباً على نفسه ، يحاسبها ، ويضبط أهواءها ويقرر عقوبتها ، فالعبد فى وقت واحد متهم وقاض ومنفذ ، والله وحده هو المطلع عليه فى ذلك ، ينظر تصرفاته ، ويسجل نزاهة عمله فى موسم الذكر والتقرب – وفى ذلك أعظم تربية لضميره – ويتفق مع الآية السابقة قوله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ »[٣] .

هذا كله إلى جانب ما قد يمارسه المؤمن من تجارة نافعة فى الموسم ، أباحها الله له ، فليس من الممكن أن تستقيم حياة هذا التجمع العظيم ، بدون تجارة توفر لكل فرد احتياجاته من الطعام والشراب والملبس والمسكن ، وفى كل ذلك منافع عظيمة تفضل الله سبحانه بها على أهل الموسم ، وهو ما نفيده من قوله تعالى : (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ)[٤] . وقوله سبحانه : (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً ، وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط .
(٢) سورة البقرة : ١٩٧ .
(٣) رواه البخارى ومسلم .
(٤) سورة البقرة : ١٩٨ .

يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ)[١] .

ولقد ندرك من هذا السياق حكمة الحق سبحانه من تقديم المنافع على ذكر الله ، لأن هذه المنافع التجارية ، تتوقف عليها حياة الألوف من الحجاج ، حتى يستطيعوا أن يؤدوا ما طلب إليهم من ذكر الله فى أيام معلومات ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، كما يقولون . غير أن أعظم ما يتحقق فى مناسبة هذه الفريضة العظيمة من فرائض الإسلام هو اجتماع هذا الحشد الضخم من سائر أنحاء الأرض المسلمة ، وهى فائدة تعود ببركتها وخيرها على جماعة المسلمين ، إلى جانب ما تحقق لكل فرد منهم .

ومن المستحيل فى أى مكان آخر أن يجتمع هذا العدد الهائل من ذوى القلوب النقية ، والمشاعر التقية ، فى مكان واحد ، لهدف واحد ، وبوجهة واحدة ، يهتفون بنداء واحد متصاعد إلى عنان السماء تردده معهم الأودية والجبال : «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ ، إِنَّ الْحَمْدَ والنِّعْمَةَ لَكَ والْمُلْكَ ، لا شَرِيكَ لكَ» .

هذا التجمع العظيم هو فى الواقع أصدق ما يمثل الأمة الإسلامية اليوم ، ويمهد لحل جذرى لمشكلاتها على اختلاف الأوطان ، فإن مشكلة هذه الأمة فى عصرنا ليست إلا فى بعدها عن عقيدتها ، وكتاب ربها ، وسنة نبيها ، فإذا جاء هؤلاء إلى البقاع المقدسة ، مخلفين وراءهم الدنيا ، حاملين معهم آمال ذويهم ، وهموم أوطانهم ، لم يكن خيرًا من أن يعرضوا هذه الهموم للتذاكر والمناقشة فى مؤتمرهم الكبير العظيم ، ومحاولة التوصل إلى حل لها فى هذا الجو الروحانى الشفاف .

أيها المسلمون . إن مشكلات الوطن العربى والإسلامى تزداد على مر الأيام

---

(١) سورة الحج : ٢٧ و ٢٨ .

تضخماً ، ويزيد من تعقدها اتصالها بالمشكلات الأخرى فى العالم المعاصر ، وجوهر هذه المشكلات فى الواقع إما روحى : متمثل فى موجات الإلحاد الكاسحة التى غطت مساحات كبيرة من الأرض ، وأخضعت ملايين هائلة من الناس ، ومع ذلك فإن الإلحاد لم يحل مشكلة أصحابه والمنحرفين إليه ، بل زادهم بلاءً ـ كما أنه متمثل فى بعد أصحاب الدين عنه بعداً نتج عنه تعطيل أحكام قدَّس الله أمرها ، وائتمن عباده عليها ، وبذلك عم الشك فى قيمة الدين كحل لمشكلات البشر ، لأن أصحاب الدين لم يعطوا القدوة من أنفسهم ، ولم يقدموا التجربة الحية لتطبيق تعاليمه ، فتراكمت سحب الإهمال على جوانب الدين . وهذه هى المشكلة الروحية فى عالم اليوم .

وإما أن تكون المشكلات ذات طابع اقتصادى متجسم فى الجوع الذى يداهم البشر ، من جراء التكاثر السكانى ، أو سوء توزيع الثروات ، حيث تتركز منها كميات ضخمة فى مناطق من العالم ، على حين يندر وجودها أو ينعدم فى مناطق أخرى ، وفى بعض هذه المناطق الأخيرة مسلمون ، كما فى الهند وباكستان ، وغيرهما من بلاد آسيا وإفريقيا .

وتلك مشكلة لا يمكن أن تعالج إلا على أساس إنسانى دعا إليه الإسلام . وليس كالحج مناسبة لبحث هذه المشكلات فى إطارها الإسلامى ، وفى إطارها الإنسانى ، لمحاولة إيجاد حل لها ، يواجه الأزمة المتوقعة فى شتى أنحاء العالم .

فالمشكلة مشكلة حرمان وجوع : جوع مادى ، هو خواء البطون ، وجوع روحى ، هو خراب الضمائر ، والصرخات التى تصم الآذان الآن إما صرخات معدة خاوية تطلب طعاماً ، وإما صرخات ضمير معذب يطلب إيماناً .

وفى يدكم أنتم أيها المسلمون حل المشكلة الاقتصادية الملحة ، على أساس من العدالة التى امتاز بها دينكم ، ذلك الدين الذى حض على التعاون ،

ودعا إلى التكافل ، ورغّب فى العمل ، وندبكم دائماً إلى الاجتماع من أجل مواجعة النفس ، ومناقشة الحساب ، كما أن فى يدكم حل المشكلة الروحية المتأزمة ، على أساس من هدى الحيارى إلى الإيمان بالله ، ونشر ما حوى تراث دينكم من علم نافع ، وخلق متين ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكـــر .

وهذا الحج مناسبة كبيرة تتذاكرون فيها آلام الإنسانية ، ومشكلات بلادكم الخاصة ، هنالك أيها المسلمون شعوب مسلمة ما زالت تئن تحت سياط المستعمرين ، وأول هذه الشعوب المعذبة شعب فلسطين ، الذى استقر الاستعمار الصهيونى على ترابه ، وشرد أصحاب الأرض فى أنحاء الأرض ، وقد ثبتت أقدام هذا الاستعمار بسبب تفرق كلمتنا ، وتمزق وحدتنا ، وارتمائنا فى أحضان سياسات لا تستهدف نصرة الإسلام ، ولا تحرير الأرض المقدسة من عصابات اليهود .

ولسوف تدوم هذه الحال إذا استمر وضعنا الراهن ، من التناحر والفرقة ، ومن الانصراف من مجابهة المشكلات الطارئة بالحل الحاسم .

فهل يأذن الله لنا أن نلتقى على خير فى هذا الموسم المبارك ، فنعرض مشكلة هذا الوطن السليب على جماهير المسلمين ، ليزدادوا وعياً بما بلغته هذه المشكلة فى مراحل كفاحها ، وبما حققه العاملون لها من نتائج إيجابية ، وبما ينتظرون من معونة إخوانهم المسلمين فى شتى البقاع ، ضريبةً واجبةً على كل فرد فيهم ، يدفعها عن سخاء وبذل ، فى انتظار يوم الفصل ، (وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ؟ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً)[1] .

تلكم يا معشر المسلمين دروس مستفادة من الحج ، على مستوى الفرد ،

---

(١) سورة الإسراء : ٥١ .

وعلى مستوى الجماعة ، وهى دروس تصلح للتأمل ، فى سبيل استخراج ما فيها من خير ، يتحول عند صدق النيات إلى عمل نافع ، وإحساس بالرضا يملأ نفس المؤمن .

أسأل الله أن يكتب لنا أداء هذه الفريضة المحكمة ، وأن يمتعنا بزيارة رسوله عليه الصلاة والسلام ، حتى تتزود قلوبنا إيماناً بالله ، وتعيش جوارحنا ساعات جهاد فى سبيل الله ، وما ذلك على الله بعزيز .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : « سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَىُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ . . قَالَ : إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ . . قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ . . قال : الجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللهِ ، قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ . . قال : الحَجُّ الْمبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَّ الْجَنَّةُ »[1] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

الجهاد دفاع عن المقدسات والحقوق

الحمد لله وعد عباده المخلصين بالنصر والتأييد (وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) . وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، أكمل لنا الدين ، وأتم علينا نعمته ، ورضى لنا الإسلام ديناً ، وأمرنا بأن نحرص على ديننا أشد من حرصنا على الحياة وأن تكافح فى سبيل حفظه ، والتمكين له فى الأرض ، حتى يرضى عنا ويهب لنا التوفيق . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله سيد المجاهدين ، وإمام الصابرين ، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، الذين جاهدوا فى الله حق جهاده ، فأيدهم الله ، كتب لهم عزّ الدنيا وسعادة العقبى . (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

أما بعد : فيقول الله تعالى وهو أصدق القائلين : (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

يا عباد الله : كثير من الناس يعيشون حياتهم ، ولا يعنيهم منها إلا طعام يشبع وشراب يروى ولباس يتزين به ، ورفاهية ينعمون بها ، فتراهم يسعون فى الأرض ويجدّون فيها ويريقون ماء وجوههم ، فى سبيل أن يحصلوا على هذا المتاع ، ولا يفكرون فيما وراء ذلك من عزة نفس أو علوّ همة –

(١) سورة التوبة : ١١١ .

أولئك الصنف من الناس ، مبعد عن كرائم الغايات ، فإذا ما دعا الداعى إلى موقف من مواقف الشجاعة ، ومواقف الشجاعة تقتضى أن يتنازل الإنسان عن رفاهيته ، وأن يتخلى عن كثير من ضرورات حياته ، نكص على عقبيه ورضى بأن يكون مع الخوالف ، وحقّ عليه قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ . وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)[1] .

وهناك صنف آخر من الناس ، لا يرضى إلا بالحياة العزيزة الكريمة ، ويأبى أن ينتقص شىء من كرامته أو مروءته ويرفض العيش فى ظلّ الاستغلال والاستعباد ، هذا الصنف يهب مكافحاً دفاعاً عن مقدساته وحقوقه ، فإذا ما أذن مؤذن الجهاد جعل الدنيا بما فيها من زينة وبهجة دَبْرَ أذنيه وحمل سلاحه ، والتحم بصفوف المجاهدين ، إنه يحرص أشد الحرص على حياة الشرف والفضيلة ويضحى فى سبيل ذلك بكل شىء . . إنه يضحى بأسرته وأسرة الإنسان أعز شىء عنده ، ويضحى بأمواله ، والمال عند كثير من الناس شقيق الروح ، ويضحى بالمسكن الطيب ، كل ذلك فى سبيل الله وفى سبيل العقيدة والمقدسات . . ولو لم يفعل ذلك لغضب الله عليه . . وهذا هو توجيه القرآن الكريم : (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)[2] .

أيها المسلمون : قبل أن يحمل الإنسان السلاح لقتال أعداء الله ، وأعداء الحرية ، عليه أن يجاهد أولا نفسه التى بين جنبيه ، عليه أن يكون

---

(١) سورة الحج : ١١ .
(٢) سورة التوبة : ٢٣ .

فى جهاد دائم مع نوازع الهوى ودوافع الإثم،حتى يقوى على مقاومة قوى الشر فى الحياة ، ومن يقدر على الاستعلاء على هواه كان أقدر على الانتصار على الأعداء ، والإنسان فى صراع شاق بين دوافع الروح التى تدعو إلى الخير ، وبين وساوس الشيطان الموجهة إلى الشرور ، روى ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن للشيطان لَمَّةً بابْنِ آدمَ ، وللْمَلَكِ لَمَّة ، فأَمَّا لَمَّةُ الشيطان فَإيعَادٌ بالشَّرِّ ، وتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ ، وَأَمَّا لَمَّةُ المَلَكِ فَإيعَادٌ بالْخَيْرِ وتَصْدِيقٌ بالْحَقِّ ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَليعْلَم أَنَّهُ مِنَ الله وَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوذْ مِنَ الشَّيْطَانِ ، ثم قرأ : (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) وإذا انتصر الإنسان فى جهاده مع نفسه استرخص الحياة ، وقدمها فداءً لعقيدته وعاش حياته عزيزًا حرًّا يهابه الأعداء ويحترمه الأصدقاء. والمسلمون الأولون رضوان الله عليهم أجمعين ، صانوا عقيدتهم ، ونشروا مبادئهم ، وحفظوا مقدساتهم بقوة إيمانهم وبجهاد أعدائهم ، امتثالا لقول الله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ) (١).

ولقد ذم رسول الله الذين يتعلقون بزينة الحياة الدنيا ، ويقعدون عن شرف الجهاد ، فقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وعَبْدُ الدِّرْهَمِ وعَبْدُ الْخَمِيصَةِ وعَبْدُ الْقَطِيفَةِ ، إِنْ أُعْطِى رَضِىَ ، وإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعِسَ وانْتَكَسَ ، وإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فرسه فى سبيل الله ، أَشعثَ رَأْسُه مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ ، إِنْ كَانَ فى الْحِرَاسَةِ كَانَ فى الحِرَاسَةِ ، وإِنْ كَانَ فى

(١) سورة الحج : ٧٧ وجزء من آية ٧٨ .

السَّاقَةِ كَانَ فِى السَّاقَةِ ، إن اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، وإنْ شَفَعَ لَمْ يُشفَّعْ »(١).

ولأن الجهاد طريق إلى السعادة فى الدنيا والآخرة ، صوّره المولى تبارك وتعالى على هيئة المبايعة بينه وبين عباده المجاهدين ، وحقيقة هذه المبايعة أن الله قد اشترى أنفس المؤمنين وأموالهم ، فلم يعد لهم منها شىء ، والثمن هو الجنة ، والطريق هو الجهاد ، والنهاية هى النصر أو الاستشهاد ، إن الجهاد فى سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن ، إنها السنة الجارية التى لا تستقيم هذه الحياة بدونها ، ولا تصلح الحياة بتركها ، لا بد للخير أن يغالب ، ولا بد للحق أن يكافح ، ولا بد لكلمة الله أن تعلو ، ولا بد للمقدسات أن يحافظ عليها وأن تصان ، وما دام فى الأرض أعداءٌ للحق وأنصار للشيطان — فالجهاد فى سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن ، وليس له أن يتخلص منها ، وإلا فإن إيمانه يكون مزعزعاً ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ مَاتَ ولَمْ يَغْزُ ولَمْ يُحَدِّثْ به نَفْسَه . مَاتَ عَلى شُعبَةٍ من النِّفَاقِ »(٢).

وما تمكنت الدعوة الإسلامية إلا بفضل الرعيل الأول من المسلمين ، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، من الدفاع عن دينهم ، والحرص على عقيدتهم . والتصدى لكل من يحاول أن ينال من حريتهم ، مهما لاقوا فى سبيل ذلك من مشاق ، روى عن أنس رضى الله عنه قال : « غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر ، فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلتَ المشركين ، لئن أَشْهَدَنِي اللهُ قِتَالَ المشركين لَيَرين اللهُ ما أَصْنَع ، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون ، فقال : اللهم إنى أعتذر إليك

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائى .

ممّا صَنَعَ هؤلاء – يعنى أصحابه – وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء – يعنى المشركين – ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ ، رضى الله عنه ، فقال : ياسعد بن معاذ ، الجنة وربِّ النضر ، إنِّى أجِدُ رِيحَهَا دُون أُحُدٍ ، قال سعد : فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أن أَصْنَعَ ما صَنَع ، قال أنس : فوجدنا به بضْعاً وثَمَانِينَ ضَرْبَةً بسَيْف، أَوْ طَعْنَةً بِرُمْح ، أَوْ رَمْيَةً بِسَهْم ، وَوَجَدْنَاهُ قد قتل ، وقد مثَّل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أُخْتَهُ بِبَنَانِهِ ، قال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه : (مِنَ الْمُؤْمِنِين رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً) (١) .

ومن هذا الفهم الواعى لمعنى الجهاد . انطلق المسلمون فى شرق الأرض وغربها يحررون الشعوب المغلوبة ، ويرفعون عنها نير الظلم والاستعباد ، وينشرون كلمة التوحيد ويرفعون راية الله ، ليؤكدوا إنسانية الإنسان ، ويخلِّصوه من الضغوط التى تقف فى طريق كرامته. ، ويقف قائد من قوادهم أمام رستم قائد الفرس الذى ذاع صيته ، ويقول له فى عزة المؤمن : إن الله قد ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة الأصنام إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . . .

ويمضى المسلمون فى تاريخهم الطويل ، يؤكدون سنة الله فى الأرض فكان لهم النصر والمنعة ما عاشوا لعقيدتهم ولحريتهم ، يستعذبون الصعاب فى سبيلها ، فأما إذا تخلوا عن طريق الكفاح فسوف يحيون مستضعفين فى الأرض يتخطفهم الناس من كل مكان . . . نعم حينما كانوا يخرجون من ديارهم لله وللحرية يثبت الله أقدامهم ، وينصرهم على أعدائهم ، ويكتب

(١) رواه البخارى والنسائى .

لهم الفوز والتأييد ، وقد أكد ذلك هدى رسول الله فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِى سَبِيلِهِ ، لاَ يُخرِجُهُ إلاَّ جِهَادٌ فِى سَبِيلِى وإيمَانٌ بِى وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِى فَهُوَ ضَامِنٌ أَن أُدْخِلَه الْجَنَّةَ أَوْ أُرْجِعَهُ إلى مَنزِلِهِ الَّذِى خَرَجَ مِنهُ نَائِلا مَا نَالَ مِنْ أَجْر أَوْ غَنِيمةٍ ، والَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ؛ مَا كَلْمٌ يُكلَمُ فِى سَبِيلِ اللهِ إلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كُلِمَ ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ ، وَرِيحُهُ رِيحُ مِسْك ، والَّذِى نَفْس مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوْلا أَن أَشُقَّ عَلى الْمُسْلِمِينَ ما قَعَدْتُ خِلافَ سَرِيَّة تَغزُو فِى سَبِيلِ اللهِ أَبَدًا ، ولكن لا أَجِدُ سَعَةً فأَحْمِلَهُمْ ولا يَجِدُونَ سَعَةً ، ويَشُقُّ عليْهِمْ أَن يَتَخَلَّفُوا عَنِّى ، والَّذِى نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوَدِدْتُ أَن أَغزُوَ فِى سَبِيلِ اللهِ ، ثُمَّ أُقتَلَ ، ثُمَّ أَغزُو فَأُقتلَ ، ثُمَّ أَغزُو فَأُقتَلَ »[1].

وإذا كان الجهاد هو سبيل انتصار المسلمين فى تاريخهم الطويل ، فما زال إلى اليوم هو الطريق السوىّ لتأكيد حريتهم ، وتثبيت استقلالهم ، والأُمة العربية الإسلامية اليوم يتخطفها الأعداء من كل جانب ، أعداء من خارجها من المستعمرين الذين لا يريدون لها حرية ولا كرامة ولا عزة ، وأعداء من داخل صفوفها من عملاء الاستعمار ، وأعوانه الذين لا يعيشون إلا من دماء الشعوب ، ومن عرقهم ، ومن ناتج عملهم ، هؤلاء الأعداء لا سبيل إلى التغلب عليهم إلا بعقد العزم على الكفاح ، وإعداد العدة للجهاد.

والله تعالى يقول: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ومِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاتَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ)[2].

---

(١) رواه مسلم .

(٢) سورة الأنفال : ٦٠ .

إن الأعداء لا يخشون إلا الأقوياء ، فعلى المسلمين أن يأخذوا بأسباب القوة ، وأن يكون بأيديهم مثل السلاح الذى بأيدى أعدائهم ، وأن يبذلوا فى سبيل إعداده كل مرتخص وغال ، والسلاح فى يد المؤمن يزداد بإيمانه قوة ، لأن صاحبه يدافع به عن مبدإ كريم وهدف نبيل : (الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)[1].

وحينئذ تتأكد أمجاد العرب ، وتتأكد لهم حريتهم . . وتتحقق لهم العزة التى كتبها الله لهم فى قوله : (وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) . .

فاتقوا الله عباد الله ، واجمعوا صفوفكم ووحدوا كلمتكم ، وأعدوا أنفسكم للدفاع عن مقدساتكم ، وللذود عن كرامتكم ، يكتب لكم ربكم النصر والتوفيق .

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يُؤْتَى بالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فيقول الله له : يا ابْنَ آدَمَ كيف وجَدْتَ مَنزِلَك ؟ فيقول : أَيْ رَبِّ ، خَيْرَ مَنزِل ، فيقول : سَلْ وَتَمنَّه ، فيقول : وما أَسْأَلُكَ وأَتَمنَّى ؟ أَسْأَلُكَ أن تَرُدَّنِى إلى الدُّنيَا فَأُقتلَ فى سبيلك عَشْرَ مَرَّاتٍ ؛ لِمَا يَرَى مِنْ فَضل الشَّهَادَةِ »[2].

---

(١) سورة النساء : ٧٦ .

(٢) رواه النسائى والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .